رسالة القرآن

مجلة فصلية، تعنى بمفاهيم القرآن العظيم ومقاصده

العدد الثاني، السنة الأولى: شوال – ذو القعدة – ذو الحجة: 1425هـ/ دجنبر- يناير - فبراير: 2004/2005م.

في هذا العدد:

- افتتاحيةٌ حَوْلَ قَضِيَّةِ القُرْآنِ في مَعْرَكَةِ السَّلام!
د. الشاهد البوشيخي يؤسِّسُ منهجاً قرآنيا لفقه واقع الأمة، وتجديد حياتها!
د. أحمد حسن فرحات في خطوة جديدة نحو مَنْهَجِيَّةٍ مُوَحَّدَةٍ لتَفْسِيرِ القُرْآن!
د. أحمد عبادي يبني مفهوماً خاصاً لنَظَرِيَّةِ التَّرْتِيلِ لِلْقُرْآنِ الْمَجِيد!
الداعية التركي محمد فتحُ الله كُولَن يَكْتُبُ حول جَاذِبِيَّةِ القُرْآن!

فهرس المحتويات

الافتتاحية:

القرآنُ العظيمُ في مَعْرَكَةِ السَّلاَم

مَدْخَلٌ إلى تَأسِيسِ القَضِيَّة

لا تحرير للأمة اليوم في معركـة هـذا العصـر إلا بـالقرآن! لأن طبيعة المعركة الجديدة قائمة على (الكلام!) والقرآن العظيم هو الكلام القاهر فوق كل كلام!
ولكن بعد أن نفهم السؤال الإشكالي: ما حقيقةُ (الكلام)؟ وما دوره في معركة العصر الجديدة؟
إن (الكلام) ليس (قولا) وحسب، إذ (القول) دال على كل ملفوظ، سواء أفاد معنى أم لم يفده، كما هـو معلـوم من تعريفـات النحـاة، بينمـا (الكلام) لا يكـون إلا لفظـا مفيـدا لمقصودٍ مُرَادٍ للمتكلم، سواء أفاد خيرا أم أفاد شرا! على وِزَانِ قولِ ابن مالك:
كَلاَمُنَا لَفْظٌ مُفِيدٌ كاسْتَقِمْ!
ومن هنـا ننطلـق من هـذا التقعيـد النحـوي المدرسـي البسيط؛ لنجزم بعـد ذلـك بـأن الكلام - على هـذا المعـنى المؤصـل في قواعـد العربيـة - لا يكـون إلا فعلا جاريـا في الواقع، وحدثا جالبا لأثرٍ في التاريخ! إن الكلمة – أي كلمـة – إنما هي فعل من الأفعال، هذا على المستوى الوجودي. وتأمل كيف أن الخطاب مهما يصدر من منتجه فإنـه لا بـد يـؤثر في الواقـع ولـو على المسـتوى النفسـي ابتـداء، ثم يكـون لـه بعـد ذلـك أثـر فعلي. وأقـل الأثـر أن يعـود على صـاحبه بـالخير أو بالشـر. ولا يتصـور في الواقـع والعـادة الجارية في الخلق كلامٌ بلا أثر مطلقا البتة! وهذا يبـدأ من مستوى الخلق والإنشـاء والتكـوين، ممـا ينسـب إلى اللـه جـل جلالـه من الأفعـال والأقـدار، إلى مسـتوى الفعـل الإنساني والإنجاز البشري في الواقع والتاريخ.
فمثال الأول: قول الله تعالى فيمـا عَـرَّفَ بـه حقيقـةَ نبيـه عيسى عليه السلام، واصفا إيـاه بأنـه (كَلِمَتُـهُ!) قـال جـل ثناؤه: (إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُـولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُـهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ)(النسـاء:171). فكـان عيسـى ههنـا هـو (كلمـة اللـه) جـل علاه، أي أنـه راجـع إلى أمـره القدري التكويني. إنه إذن خَلْقُ الله؛ لأن (الكلمـة) راجعـة إلى فعلـه تعـالى المتعلـق بتـدبير شـؤون الربوبيـة؛ خلقـا وتقديرا وقَـيُّومِيَّةً. وهـذا المعـنى شـامل في كـل خلـق أو

تصرف إلهي، وفي كل قضاء وقدر. لا شيء من ذلك كله يخرج عن (كلمة الله)[1]. ومما يتبين منه أيضا أن (الكلمة) في القرآن أمرٌ واقعٌ حتما قوله تعالى: (وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ)(هود:110)، وقوله سبحانه: (وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ)(هود: 119)، وكذلك قوله جل ثناؤه: (وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ)(غافر:6). ومِثْلُ هذا في القرآن كثير لمن شاء أن يتتبعه. فكل ذلك ونحوه مما تضمن ضميمة (كلمة ربك) دال على معاني الخلق والإنشاء والتكوين والتصيير، وسائر أفعال القضاء والقدر الإلهيين. وليست (الكلمة) قولاً يقال لمجرد القول وكفى! بل هي إنجاز حتمي لا يتخلف توقيعه أبدا! فمتى قيلت (الكلمة) - بهذا السياق – كان معناه أنها فُعِلَتْ! ومن هنا لم تخرج (كلمة الله) عموما عن معنى فعل الله جل وعلا، وهو سبحانه وتعالى لا يخلف القول ولا الميعاد.

ومثال الثاني قول الله تعالى: (وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا)(البقرة:31). فالأسماء – مهما اختلف في تفسير معناها – فإنه لا اختلاف في أنها (كلام) بالمعنى الشرعي والوجودي للكلمة! ولا يمكن أبدا أن تتصور (الأسماء) على أنها لغو أو عبث! فهي أساس الناطقية التي فُطِرَ عليها الإنسان، والتي تشكل جوهرا أساسيا من ماهيته الوجودية، ووظيفته الكونية، والتي كانت - بعد ذلك - أساس الاستخلاف له في الأرض! ومثلها قوله تعالى: (خَلَقَ الإِنسَانَ. عَلَّمَهُ الْبَيَانَ)(الرحمن:3-4). ومن هنا كانت مسؤوليته عما يتكلم به كبيرة جدا! وهي مسؤولية لا تخرج عن عموم الأمانة التي أنيطت بالإنسان في قول الله جل وعلا: (إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولا!)(الأحزاب:72). فالكلام البشري كله محصي عليه كَلِمَةً كَلِمَةً! سواء فيه إنشاؤه وخبره؛ لأنه كله يوزن بميزان التحقيق بين الصدق والكذب!

---

[1] سيأتي بسط أوضح لهذا المعنى بعد قليل إن شاء الله.

وأزعم أنه لا شيء من الكلام الطبيعي للإنسان إلا وهو يحتملهما![2]

ومن هنا قول الله تعالى الجامع لكل ذلك: (مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إلا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ!)(ق:17). وقوله تعالى: (وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إلا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا!)(الكهف: 49). ويدخل في ذلك قطعا كل ما تلفظوا به من قول، كما ستراه بدليله بحول الله تعالى.

ولذلك فقد نال اللسان الحظ الأوفر في الاعتبار في أحكام الشريعة؛ فكانت العقود كلها - سواء كانت عقود الإيمان والإسلام، من بيعة شرعية، أو تعهد ومعاهدة، أو نكاح أو طلاق، أو كانت من المصارفات المالية من بيوع،

---

[2] وعليه؛ فتعريف البلاغيين (الخبر) في الدرس البلاغي بأنه: (ما احتمل الصدق والكذب) – بزعمهم - تعريف غير مانع أبدا! بالمعنى الوجودي لكلمة (خبر)، لا بالمعنى اللغوي العادي! فتعاريف البلاغيين راجعة إلى موازين المنطق الأرسطي الصوري، وقد عُلِمَ ما فيه من خلل منهجي في تحديد المفاهيم والتصورات! إذ هو قائم على تحديد الماهيات بحدود عقليات خاضعة لمنطق العقل المجرد عن معطيات الوحي! ولا يمكن لمثل تلك الموازين إلا أن تكون (صورية) فعلا كما عبروا هم أنفسهم! فإلى أي حد تطابق الصورة الحقيقة؟ تلك هي المشكلة! ومن هنا فحد (الخبر) عندهم هو وإن جمع المقصود فإنه لا يمنع دخول غيره فيه، أي معنى (الإنشاء)، أرأيت لو أن شخصا نادى غيره، أو أَمَرَهُ، أو نهاه، وهو لا يقصد ذلك؛ ألا يكون كاذبا؟ بلى والله! فإنما الكذب مخالفة العبارة لمقتضى الواقع، وهذا منه؛ لأن المنادي، أو الداعي، أو النادب، أو المستغيث، أو الآمر، أو الناهي.. إلى آخر ما صنفوه في معنى الإنشاء؛ كل ذلك إذا لم يصادف إرادة في نفس المتكلم وقصدا؛ فهو كذبٌ محض! فـ(الإنشاء) إذن بهذا - المعنى الوجودي - يحتمل الصدق والكذب أيضا. وهل يتوجع المتوجع لغير وَجَع؟ وهل يستغيث المستغيث لغير فَزَع؟ فإن قصد به معنى آخر من مجاز وغيره؛ كان ذلك المعنى الجديد المعدول إليه هو أساس الصدق والكذب بعد ذلك! وإنما العبرة بالخطاب قصدُ المتكلم وإرادتُه! فلا شيء من الإنشاء إلا وهو يحتمل الصدق والكذب أيضا!

وإجارات، وأكرية، وغير ذلك مما يمكن أن يتصوره الـذهن - كلها إنما هي عند التحقيق (كلام)! وليست مجرد لعب أو لهـو من الأقـوال! لأنهـا قائمـة على معـنى (مفيـد)، أي مقصود مراد للمتخاطبين؛ بما فيها من إيجاب وقبول، ومـا جـرى مجراهمـا من معـاني التراضـي والإقـرار. ومن هنـا قـول اللـه تعـالى في محكم كتابـه: (يَـا أَيُّهَـا الَّذِينَ ءامنـوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ)(المائدة:1). وقوله سبحانه في سـياق بيـان أن الإنسان محاسب على كل ما يصـدر منـه من الأقـوال، مما أوردناه قبل قليل: (مَا يَلْفِـظُ مِنْ قَـوْلٍ إلا لَدَيْـهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ)(ق:17). وفي الحديث: (وهل يَكُبُّ النَـاسَ في النـار على وجـــوههم - أو قـــال: على منـــاخرهم - إلا حَصَـــائِدُ ألسـنتهم؟!)([3]) وقولـه صـلى اللـه عليـه وسـلم أيضـا: (إن العبـد ليتكلم بالكلمـة من رضـوان اللـه، لا يلقي لهـا بـالا؛ يرفعـه اللـه بهـا درجـات. وإن العبـد ليتكلم بالكلمـة من سخط الله، لا يلقي لها بالا؛ يهوي بها في جهنم!)([4]). ومن ثَمَّ لم يكن جِـدُّ رسـول اللـه ولا مزاحـه صـلى اللـه عليـه وسلم إلا حقا وصدقا! ولم يكن فيـه كـذب قـط! حشـاه! عليه الصلاة والسلام.

إن الكلام مؤثر جدا في إنتاج الفعل الإنساني بـل هـو عين الفعل الإنساني! ولا شيء من فعله إلا وهو حاصل بالكلام مباشرةً، أو نتيجةً، أو توجيها، أو تفاعلا! وإنما بدء التكليـف الإلهي للإنسـان كَلِمَـةٌ، وآخـرُه كَلِمَـة! منـذ قـال لـه: (كُن فَيَكُون)، إلى أن علَّمَهُ (الأسماءَ كلَّهـا) إلى أن أنـزل عليـه (كلامه): القرآن الكريم!

فالذي لا يعير للكلام – أي كلام – الخطورةَ التي يسـتحقها فهو جاهل بحقائق الدين وحقائق الوجـود معـا! وكثـير من العقوبـات في الإسـلام والحـدود والتعـازير والآثـام ...إلخ؛ إنمـا تـرتبت شـرعا عن مجـرد (كلام) يتكلم بـه الإنسـان باطلا! بدءا بكلمة الكفر إلى كلمـة القـذف، إلى مـا شـابه

---

3 جزء حديث رواه أحمد وأصحاب السنن إلا أبا داود، وقال الترمذي: حسن صحيح.

4 رواه البخاري.

ذلـك من كلمـات الغيبـة، والنميمـة، وعبـارات السـخرية والتنابز بالألقاب، وهلم جرا..!

كما أن بدء الخير كله (كلمة)، انطلاقا من كلمــة الإخلاص: (لا إله إلا الله)، وما يتممها من (شهادة أن محمـدا رسـول اللــه)؛ إلى أبســط كلمـات الإيمـان والإحسـان، كإفشـاء السلام، وتشـميت العـاطس، وإرشـاد السـائل... ومـا بين هذا وذاك من كليات الكلام وجزئياته؛ فإنه جميعـا يَـؤُولُ – في النهايـة - إلى بنـاء عمـران الحيـاة الإنسـانية، القائمـة على العـدل والسـلام؛ لأن ذلـك كلـه هـو الـذي ينتج فعـل الخير بمعناه المطلق، ويحقـق غايـة الوجـود البشـري في الأرض. ومن هنــا كــانت أول نعمــة امتن اللــه بهــا على الإنسان بعد نعمـة الخلـق أنـه علمـه البيـان! ولـذلك كـان القرآن بين يديه - وهو كلام الله – الأداة الكلاميـة الفاعلـة لإقامة الحياة في الأرض بالقسط والميزان! فـاقرأ وتـدبر قولَه تعالى: (الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْءَانَ. خَلَـقَ الإِنسَـانَ عَلَّمَـهُ الْبَيَــانَ. الشَّــمْسُ وَالْقَمَــرُ بِحُسْــبَانٍ. وَالنَّجْمُ وَالشَّــجَرُ يَسْجُدَانِ. وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَـا وَوَضَـعَ الْمِـيزَانَ. أَلا تَطْغَـوْا فِي الْمِيزَانِ. وَأَقِيمُوا الْـوَزْنَ بِالْقِسْـطِ وَلا تُخْسِـرُوا الْمِـيزَانَ!) (الرحمن: 1-9). وأول الوزن وزن الكلام، الذي هو حقيقـة (البيان)، فـإذا خسـر؛ خسـرت كـل المـوازين بعـده! بـدءا بمــوازين السياســة – بمعناهـا العـام – ومـا تتضـمنه من مــوازين الإدارة والاقتصـاد؛ إلى مــوازين التجـارة وسـائر المصارفات المالية والاجتماعية الجزئية والكلية... إلى كل طبائع العمـران وتجليـات الحضـارة البشـرية؛ إلى كـل مـا يمتد إليه ذلك من فقدان توازن الحيـاة الإنسـانية والبيئيـة والكونية!

إن اللغة تصنع الحياة أو تدمرها! ومن هنا كانت مســؤولية الكلمة في الإسلام جسيمة جدا!

والإعلام اليــوم هــذا الطاغيــة الــذي يســمونه (السـلطة الرابعـة)! ليس في واقـع الأمــر إلا السـلطة الأولى! لأن المتسلط على الخلق، الحاكم أمـرهم بـالحق أو بالباطـل؛ إنما وصل إلى مبتغاه من التسلط والتحكم بالكلمة! فحتى عندما يكون الأسلوب المتبع في التسلط قهريا؛ فإنما صنع

الطاغيــة أدوات قهــره وتجــبره في البدايــة بالكلمــة! ولا شيء يبدأ قبل الكلمة! فَبَدْءُ الوجود والخَلْقِ والتكـوين في القرآن الكريم إنما هو كلمة! إنهـا كلمتُـهُ جـلَّ جلالُـه: (كن فيكون!) قـال جـل شـأنه: (أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَـقَ السَّـمَاوَاتِ وَالأرْضَ بِقَــادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُــقَ مِثْلَهُمْ؟ بَلَى وَهُــوَ الْخَلاقُ الْعَلِيمُ! إِنَّمَا أَمْـرُهُ إِذَا أَرَادَ شَـيْئًا أَنْ يَقُـولَ لَـهُ كُنْ فَيَكُـونُ! فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَـدِهِ مَلَكُـوتُ كُـلِّ شَـيْءٍ وَإِلَيْـهِ تُرْجَعُـونَ.) (يس:81 -83).

إن (الكلمــة) هي الـتي تصـنع الصـورة وتنتجهـا، بـل هي جوهرها وحقيقتها؛ فلا يغرنك أن الإعلام اليوم صـار يرتكـز أساسـا على الصـورة، فإنمـا هـذه – رغم خطورتهـا - بنت تلك في نهاية المطاف. ولولا الكلمـات لمـا كـانت الصـور في الوجود أصلا! أضف إلى ذلك أن الصورة تُعْرَضُ حينمـا تُعْرَضُ في العادة الغالبة مسبوقةً بالكلمة، أو مقرونة بهـا، أو ملحقــة بهــا! أو كـل ذلـك جميعـا! فلا تـأتي إذن إلا من خلالها! وحينما نتوهم أننا نتلقى صورا بغـير كلمـات، فإنمـا هي لعبة الكلمة المتخفية خلف الصـورة! إنـك لا تسـمعها، نعم؛ ولكنهـا تتـدفق إلى خــواطرك في صــمت، وتســكن اعتقادك بقوة! ومن ذا الذي قـال إن الكلمـة هي الصـوت فقط؟ إنما الكلمة (مفهوم) يتواصل به الإنسان عبر اللغـة الطبيعية، الصوتية أو الإشـارية أو الصـورية أو السـيميائية، إلى غير ذلك ممـا في الوجـود من رمـوز وأشـكال نُصِـبَتْ للدلالة على معنى!

إن الكلمة هي الوجود؛ ومـا سـواها صـور! ومن هنـا تـرى عمق الآية الكريمة: (وَعَلَّمَ آدَمَ الأسْمَاءَ كُلَّهَا)(البقرة:31)؛ فـانظر - في ضـوء ذلـك - إلى هـذا الكلام الإلهي العظيم! كم هو فعلا يضـرب في عمـق الحقيقـة، وإلى أي حـد هـو يوغل في مجاهيل الوجود!

إن الإعلام اليــوم كمــا كــان من قبــل في التــاريخ – رغم اختلاف الأشكال والتجليات – ليعتبر أخطر وسائل التحكم، وأرهب أدوات الصـراع الحضـاري، وأقـوى آليـات التـدافع العمراني في الأرض!

إن الطواغيت الذين قهروا الناس في الأرض عـبر التـاريخ لم يكونوا بشرا فوق البشـر في أبـدانهم ولا عقـولهم! ولا كانوا (آلهة) في واقع الأمـر، وإنمـا هم (متكلمـون) فقـط! أسسوا أسطورة من الكلام في أذهان النـاس وسـحروهم بها، أو ورثوا رصيدا كلاميا عن آبائهم وأجدادهم واسـتمروا في إنتاجه وتجديده؛ حـتى تعيش الأسـطورة في شـعوبهم إلى الأبـد! فكـان منهم (ابن الشـمس) و(حفيـد الـرب)، و(وكيـل الآلهـة)، وغـير ذلـك من سـائر أنـواع الكلام ممـا يـدخل في قولـه تعـالى: (فَلَمَّا أَلْقَـوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ!)(الأعراف:116).

وما كـان طغيـان فرعـون في الأرض واسـتذلال أهلهـا؛ إلا من بعد أن أوهمهم بأنه هـو ربهم الأعلى! فلم يكن يـريهم إلا مـا يـرى! (فَحَشَـرَ فَنَـادَى فَقَـالَ أَنَـا رَبُّكُمُ الأَعْلَى!)(النازعات: 23-24) ومن هنـا لمـا خالفـه قائـل الحـق من رجاله نطق بقوة فقال كمـا حكى اللـه تعـالى عنـه: (قَـالَ فِرْعَـوْنُ مَـا أُرِيكُمْ إِلا مَـا أَرَى وَمَـا أَهْـدِيكُمْ إِلا سَـبِيلَ الرَّشَادِ!)(غافر:29). فكان بذلك مثـالا لكـل طغيـان وتألـه وتجـبر! (إِنَّ فِرْعَـوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ وَجَعَـلَ أَهْلَهَـا شِـيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ!)(القصص:4).

إنه قهر القوة والسلطان الباطـل، الـذي يصـنعه - فقـط - سـحر الكلام! وانظـر إن شـئت إلى هـذا البيـان السـحري الرهيب! الذي ألقاه فرعون على قومه من بعد ما زلـزلت عرشَه آيـاتُ موسـى عليـه السـلام؛ قـال تعـالى: (وَنَـادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْـرَ وَهَـذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي؟ أَفَلا تُبْصِرُونَ؟ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَـذَا الَّذِي هُـوَ مَهِينٌ وَلا يَكَـادُ يُبِينُ!؟ فَلَـوْلا أُلْقِيَ عَلَيْـهِ أَسَـاوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلائِكَةُ مُقْتَـرِنِينَ؟ فَاسْـتَخَفَّ قَوْمَـهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَـانُوا قَوْمًـا فَاسِـقِينَ!)(الزخـرف:51-54).

وتأمل جداً ما أعقب الله بـه خطـاب فرعـون: (فَاسْـتَخَفَّ قَوْمَـهُ فَأَطَـاعُوهُ إِنَّهُمْ كَـانُوا قَوْمًـا فَاسِـقِينَ!) فهـو إنمـا استخف في الواقع عقولهم!

ولقد قرأت قصة طريفة مترجمة عن الكتابة الفرعونية القديمة رواها أحد أطباء فرعون. وذلك أنه تسلط ذات يوم على أحد الأغنياء فأراد أن ينتزع منه ضيعته، فلما أبى أن يتنازل عنها نكل به فرعون تنكيلا! فقطع أيديه وأرجله من خلاف، وألقاه على حافة الطريق! فصادف أن كان الطبيب مارا بعربته فوجده يئن في الظلام، فلما عرفه رَقَّ لحاله؛ وحمله إلى بيته ثم عالجه من آثار جروح البتر. ثم انقطعت صلته به بعد ذلك إلى أن مات فرعون. ولما كان يوم مراسم التحنيط والدفن على - عادة قدماء المصريين - والكاهن يلقي كلماته في رثاء فرعون، بما يصبغه عليه من رداء الربوبية المزيفة، والألوهية المدعاة، والعظمة المكذوبة! ويذكر من شيمه ما لا قِبَلَ للبشر به! إذا بالطبيب يجد من بين الحاضرين الرجل الغني الذي نكل به فرعون من قبل، وقطع أيديه وأرجله من خلاف، وجده يبكي بحرارة ويقول: ما كنتُ أعلم أن فرعون كان إلها مقدَّساً إلى هذا الحد! وكأنما يبكي ندما على ما فرَّطَ في جنب فرعون، ولم يكن له من الطائعين ومن عباده الصاغرين!

هذه هي المشكلة! ورحم الله العلامة المفكر الإسلامي الرئيس البوسني الراحل: علي عزت بيجوفيتش عندما قال كلمته المشهورة، وقد جاء متأخرا إلى المسجد من يوم الجمعة، فتنحى الناس له ليجلس في الصف الأول، فقال: (هكذا تصنعون طواغيتكم!)

إن الرصيد الأسطوري الذي كان لدى فرعون مما تركه سدنة الفراعنة هو الذي به حكم كل فرعون في التاريخ مملكته. إنه سحر الكلام، أو قل إنها (سلطة الإعلام)! وليست مفاهيم الديموقراطية اليوم، أو العدالة، أو حقوق الإنسان، وما شابهها من مقولات ساحرة؛ إلا وسائط إعلامية أنتجها كهنة العصر الكبار؛ للتمكين للمستكبرين وتحقيق غطرسة المتغطرسين وتمديد ظلمهم العتيد! إن الإنسان لما يتوهم أنه مغلوب على أمره، أو أنه لا يستحق أن يكون حرا؛ يخضع بصورة تلقائية لمن غلبه بهذه الأكذوبة!

إن الأسلحة الفتاكة الرهيبة اليوم، مما اسْتُعْمِلَ ويُسْتَعْمَلُ في الحروب المعاصرة؛ ما كان لها أن تفعل في الإنسان فعلها؛ لولا أن الفراعنة الجدد سحروا أعين الناس واسترهبوهم! سواء في ذلك مستعملوها وضحاياها جميعا! فقد سحروا أولئك بما أوهموهم من أنه (عمل صالح) فنفذوه! وسحروا هؤلاء بما أوهموهم من أنه لا طاقة لهم بها! فكان لها ما كان من تأثير وتخدير، ثم تدمير! إنها قوة الكلمة! وإنه سِحْرُ الكلام!

من هنا كانت معجزة هذا العصر هي القرآن. القرآن بما يملكه من قوة خارقة في تحرير الإنسان من عبودية الشهوات التي تثقله إلى التراب، وتملي عليه تقديس الحياة الفانية، وتخضعه لمن يهدده بالقتل والتشريد فيها. القرآن بما يملكه من سلطان رباني على النفوس يجعلها تبصر حقيقة أنه: لا إله إلا الله الواحد القهار! حركةً حيةً أبديةً في الكون وفي التاريخ! وأن كل استكبار من دونها هو محض افتراء وهراء! القرآن بما له من خاصية التحويل الوجداني العميق لمسار الإنسان؛ من جِرْمٍ جزئي ضئيل، يدور فَلَكٍ قصير من متاع الدنيا الشهواني؛ إلى كائن كوني كبير، يدور في فَلَكِ الملكوت الرباني الفسيح، في سيره العظيم إلى الله.. حيث يرى - بعين القرآن واستعلاء الإيمان - كيف أن كيد الشيطان كان ضعيفا حقَّ ضعيف! وكيف أن المعركةَ كونيةٌ، يقودها الله رب العالمين! ويدرك آنئذ أن سباع العولمة الطاغية، التي أرهبت العالم بجيشها وسلاحها؛ مجرد نمور من ورق! متى أهرق عليها ماء القرآن ذابت في الطين!

نعم، لا فكاك من أكاذيب الكلام وسحره إلا بجهاد ونضال مستميتين؛ لأن كسر أغلال السحر لا بد فيه من تضحية ودماء، ولكن؛ لا وسيلة لذلك كله إلا بإنتاج كلام مضاد لذلك السحر ومغالب له! كلام يصنع رجالَ القرآن ويُعِدُّهُمْ إعدادا! الرجال الذين يرون الحقائق كما هي في الطبيعة، لا كما يصورها السحرةُ الكبار في خطاب العولمة، المحيط بفضاء المستضعفين إيهاما وتوهيما! ذلك هو الأساس الذي لا يُفْعَلُ شيء في الوجود إلا به! حتى إذا

غلبه تمكن من نشر سلطانه عليـه وقهـره. إنـه إذن جهـاد المقولات والمفاهيم، في معركة عَقَدِيَّةٍ كـبرى بين عقيـدة الإسلام؛ وإديولوجيا العولمة العلمانية المتوحشـة! معركـة رفـع فيهـا (النظـام العـالمي الجديـد) رايـة كلمـة الـدجل المضللة، ورفع القـرآن فيهـا رايـة (كلمـة اللـه). ومن هنـا قول الله تعالى في بصيرة عظمى من بصـائر الآيـات، في سـياق الحـديث عن حجيـة القـرآن العظيم: (فَلا تُطِـعْ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا!)(الفرقان:52).

وبهذا المنطق الصادق الصريح كان القرآن هو الذي يصـنع السـلام العـالمي بحـق! إن السـلام لن تصـنعه غطرسـة أمريكا وأحلافها؛ ولا جبروت الكيان الصهيوني، ومـا ينتجـه في العالم كله من خراب ودمار. مـا كـان للظـالم - أبَـداً - أن يصـنع المحبـة والسـلام! فالنـار لا تنتج إلا اللهيب والاحتراق! وأدرى الناس بهذه الحقائق هو الظالم نفسـه! ولكنـه سـحر الكلام، ودجـل الإعلام، يجعـل السـم القاتـل عسلا شافيا؛ فيأكله الضحية بيده مختاراً! تمامـا كمـا أكـل آدم الفاكهة المحرمة مختاراً! ذلك هو أسـلوب الشـيطان، ومنطق الباطل أبداً عبر التاريخ!

إن السلام العالمي لن يكـون إلا وليـد النـور الإلهي، النـور الـذي يشـرق في قلـوب المؤمـنين بـالخير والجمـال؛ بمـا يسـكبه القـرآن في وجـدانهم، من معـاني الحـق والعـدل والحرية! ودون ذلك معركة يخوضها القـرآن بكلماتـه ضـد كلمات الشيطان! وإلا بقيت البشرية اليوم تغص حلاقيمهـا بفاكهة آدم إلى يوم الدين! والقرآن وحده يكشـف شـجرة النار ويتلف فاكهتها الملعونة!

إن هذا القرآن كلام غير عاد تماما، إنه كلام خـارق قطعـا، ليس من إنتاج هـذه الأرض ولا من إنتـاج أهلهـا، وإن كـان عليهم تنـزل ومن أجلهم تُلِيَ في الأرض. إنـه كلام اللـه رب العـالمين! الـذي قـال: (وَمَـا قَـدَرُوا اللَّهَ حَـقَّ قَـدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَـتُهُ يَـوْمَ الْقِيَامَـةِ وَالسَّـماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِـهِ سُـبْحَانَهُ وَتَعَـالَى عَمَّا يُشْـرِكُونَ)(الزمـر:67). إنـه الكلام الذي لم يملك قَبِيلُ الجن إذ سـمعوه إلا أن: (قـالوا أَنْصِتوا فلمَّا قُضيَ ولَّوا إِلى قومهم مُنْذرين. قالُوا يا قومنـا

إنا سمعنا كتاباً أُنزل من بعد موسى مصدِّقاً لما بين يديه يهدي إلى الحقِّ وإلى طريقٍ مستقيم)(الأحقاف:29-30).
وقالوا: (إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا! يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا)(الجن:1-2).
إن كلمات هذا القرآن – لو تعلمون! - قد تَنَـزَّلَتْ من السماء محملة بقوة غيبية أقوى مما يتصوره أي إنسان؛ لأنها جاءت من عند رب الكون، تحمل الكثير من أسرار الملك والملكوت، وهي جميعها مفاتيح لتلك الأسرار؛ بما فيها من خوارق وبوراق لقوى الروح القادمة من عالم الغيب إلى عالم الشهادة! وتدبر قول الله تعالى: (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا. وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً. قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا)(الفرقان:4-6). إن الذي يظن أنه عندما يقرأ القرآن يقرأ كلاما وكفى تمضي كلماته مع الهواء كما تمضي الأصوات مع الريح؛ فإنه لا يقرأ القرآن حقا ولا هو يعرفه بتاتا! وإنما الذي يقرؤه ويتلوه حق تلاوته إنما هو الذي يرتفع به ويعرج عبر معارجه العليا إلى آفاق الكون، فيشاهد من جلال الملكوت ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر! وهنالك يتكون ومن هنالك يتزود! فآهٍ ثم آه؛ لو كان هؤلاء المسلمون يعلمون! وصدق الله جل وعلا إذ قال: (يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُون!)(يس:30) نعم؛ يا حسرة على العباد! أوَلَيْسَتْ كلمات الله هي التي امتدت من هذه العبارات التي نتلوها إلى أعمق مما يمكن أن يتصوره الخيال وأبعد من أن يحيط به تصور بشري من مجاهيل الوجود؟ ألا تقرأ في كتاب الله ذلك صريحا رهيبا؟ فاقرأ إذن: (وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ! إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ!)(لقمان:27). (قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا!)(الكهف:109)

فـأين ينتهي هـذا القـرآن إذن؟ إنـه لا ينتهي أبـدا! ويحـك أليس تعلم أن كلام المتكلم صفةٌ من صفاته؟ ومتى كانت صفات الله لها نهاية؟ وهو جـلَّ جلالُـه، وعَـزَّ سـلطانُه رب العالمين، المحيط بكل شيء! فكيـف إذن بمن تَخَلَّقَ بهـذا القرآن وتحقق به في نفسه ووجدانه، وصار جـزءا حقيقيـا من حركة القرآن في الفعل الوجودي؟ وهذا القـرآن تلـك صـفته وحقيقتـه؟ أوَلَيْسَ حقـا قـد صـار جـزءا من القَـدَرِ الإلهي، الذي لا يتخلف موعده أبدا؟ أوَليس قد صار جنـدياً بالفعـل من جنـود اللـه، ممـدودا بسـرِّ ملكـوت اللـه في السـماء وفي الأرض؟ يحمـل وسـام النصـر المـبين من اليقين إلى التمكين! وهـذا عربونـه بين يديـه الآن: (وَلَقَـدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ: إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ!)(الصافات: 171-173)

وتَـدَبَّرْ كيـف أن (كلمتـه) تعـالى هي فعلـه القَـدَرِيُّ النافـذ حتما، الواقـع أبـدا! ذلـك أن كلام اللـه فـوق كـل كلام، إن كلامــه تعــالى خَلْــقٌ وتَكْــوِينٌ وإنشــاء! إنــه صُــنْعٌ فِعْلِيٌّ للموجودات والكائنات جميعا.. من المفـاهيم إلى الـذوات، ومن الذَّرَّاتِ إلى الْمَجَرَّات! وتأمل قوله تعلى: (إِنَّمَا أَمْـرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ! فَسُـبْحَانَ الَّذِي بِيَـدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)(يس:81 -83). إنه - جَلَّ وعلا - يأمر العدم فيكون وجودا! فيكفي أن تتعلـق إرادتـه بوجود الشيء ليوجد بالفعـل! وإنمـا كـل فعلـه تعـالى في الخلق والصنع والتكوين مجـرد (كلمـة)! إنهـا فعـل الأمـر: (كُنْ)! الآمـر بـالتَّكَوُّن والتكـوين، والتجلي من العـدم إلى الوجود!

إن كلماته تعالى لا تذهب سدى في الكون، إنها بمجرد مـا تصدر عنـه - جـلَّ شـأنُه – تنشـأ عنهـا ذواتٌ وحركـاتٌ في تدبير شؤون الْمُلْكِ والْمَلَكُوت! إن كلامه تعالى إذَنْ؛ خَلْـقٌ وتقدير![5] ومن هنا كان وصف الله لعيسى عليه السلام - كما سبق بيانه - بأنه (كلمـة اللـه): (إِنَّمَـا الْمَسِـيحُ عِيسَـى

---

[5] فانظر كم كان خطأ المعتزلة شنيعا؛ لما زعموا أن القرآن - وهو (كلام الله) - مخلوق! سبحانه وتعالى عن ذلك علوا كبيرا! وإنما كلامه تعالى ترجمة لفعله الذي هو الخلق والتقدير!

ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَـرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْـهُ) (النسـاء:171). وإنما جـاء ذلـك في سـياق الـرد على الـذين زعموا أنه عليه السلام ابن الله - تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا – فقوله (كَلِمَتُـهُ) دال على أنـه تجلي إرادة اللـه من الخلق والتكوين! وهو ما بينه تعالى في الآية الأخــرى: (إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ ءادَمَ خَلَقَـهُ مِنْ تُـرَابٍ ثُمَّ قَـالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ!)(آل عمران:59). ومن هنـا كـانت البشـرى لمريم (كلمةً)! كلمة غـيرت مجـرى التـاريخ، وبَنَتْ صـرحا شامخا في تاريخ النبوة! قال تعالى: (إِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَـةُ يَـا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالأخِرَةِ وَمِنْ الْمُقَرَّبِينَ)(آل عمران: 45). فكان المسيح عليه السلام هو الكلمـة! القضـية إذن هي في: (كُنْ فَيَكُونُ!) إنها (كلمة الله!)([6])

فكلام الله تعـالى هـو التعبـير عن إرادة الخلـق والتكـوين، والتعبـير عن قضـائه الربـاني وقَـدَرِه الوجـودي! وإن هـذا القرآن العظيم لهو ترجمانه الأزلي، ودستوره الأبدي!

وعليـه؛ فإنـك إذ تتخلـق بـالقرآن وتتحقـق بمعانيـه؛ تنبعث أنت نفسك جنديا من جند الله؛ بل أنت آنئذ جـزءٌ من قَـدَر الله! وتدبر كيف جعل الله من أتباع موسـى عليـه السـلام أداة قدرية شق بهم البحر! تأمل هذا جيدا: (وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْـرَ فَأَنْجَيْنَـاكُمْ وَأَغْرَقْنَـا آلَ فِرْعَـوْنَ وَأَنْتُمْ تَنظُـرُونَ!) (البقرة:50) فالله جل جلاله فرق البحر ببني إسرائيل لما كانوا مؤمنين، ولم تكن عصـا موسـى إلا أداة للفـرق، أمـا العامل الفاعل - بإذن الله - فإنما هو عزائم الإيمـان الـتي استبطنها كثير من أتباع موسى فكانوا جـزءاً من الخارقـة نفسها ولم يكونوا غيرها! فتأمل: (وَإِذْ فَرَقْنَـا بِكُمُ الْبَحْـرَ!) هكذا: (بِكُمْ) وليس (لَكُمْ)! وإن كـان معـنى هـذه مُتَضَـمَّناً في الأولى، ولكنَّ القصدَ بيـانُ أن العبـد إذا صـار وليـا للـه كـان أداةً بين يـدي اللـه - سـبحانه - في تنفيـذ قـدَره في التاريخ! واقرأ إن شئت ما ورد في الحديث القدسي: (من عادى لي وليّاً فقد آذنتـه بـالحرب!) إلى قولـه عنـه: (فـإذا

[6] تفسير القرطبي: 4/103. نشر دار الشعب، القاهرة . ط الثانية:1372هـ، تحقيق أحمد عبد العليم البردوني.

أحببتُه كنتُ سمعَه الذي يسمع به، وبصرَه الذي يبصـر بـه، ويدَه التي يبطش بها، ورجلَه التي يمشي بها، وإن سـألني لأُعْطِيَنَّهُ، ولئن استعاذني لأُعِيذَنَّهُ!)([7]).

ألا يـا حسـرة على العبـاد حقـا! وعلى هـؤلاء المسـلمين بشكل مخصوص!

وإذن؛ فإن هذا القـرآن لـو صـرَّفه أهلُـه حركـةً في الأرض لكان أقوى من أن تـثبت أمامه كلمـات الشـيطان وسـحر الإعلام، بل هو الحق الذي قال فيه الحقُّ جلَّ جلالُـه: (بَـلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُـهُ فَـإِذَا هُـوَ زَاهِـقٌ! وَلَكُمْ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ!)(الأنبياء:18). لا طاقة لكهان السياسة ببرهانـه! ولا قِبَـلَ لدجاجلـة الإعلام بسـلطانه! ولا ثبـات لطاغوت الأرض أمام رجاله! (لَوْ أَنزَلْنَا هَـذَا الْقُـرْءانَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُّتَصَـدِّعاً مِّنْ خَشْـيَةِ اللَّهِ وَتِلْـكَ الأَمْثَـالُ نَضْـرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ!)(الحشـر:21). وكيـف لا؟ وهو قد جاء بفهرست الوجود كله! كيف وقد تنَـزَّلَ بديوان الكون كله! وإن ذلك لَقولُ الحقِّ جلَّ علاه: (مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ!)(الأنعام:38). قال: (مِنْ شَيْءٍ!) يعـني: (مِنْ شَيْءٍ!) وإنما جاءت الآية في سياق الخَلْـقِ والتكـوين لا في سياق التشريع كما توهم بعضهم! فهو شمول أوسع من مجرد الأحكام والحدود بكثـير، شـمول يسـع العمـران البشري كله، بل يسع عالم الملك والملكوت بما امتد إليه من غيب مجهول!

إن القرآن عندما يأخذه الذين (يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاَوَتِـهِ)(البقـرة: 121) يكون بين أيديهم نورا يبدد ظلمات الضلال، وزلـزالا يخسف بحصون الإفك والـدجل أنى كـانت، ومهمـا كـانت! واقرأ قصـة موسـى مـع سـحرة فرعـون فـإن فيهـا دلالـة رمزية عظيمة على ما نحن فيه، في خصوص زماننـا هـذا! ذلــك أن (كلمــة الباطــل) كــانت تمثلهــا آنئــذ زمزمــات السحرة، فتجردوا لحرب كلمة الحق التي جاء بها موسى، وخاضوا المعركة على المنهج نفسه الذي يستعمله الباطل اليوم، إنه منهج التكتلات والأحلاف! تماما كمـا تـراه اليـوم في التكتلات الدولية التي تقودها دول الاسـتكبار العـالمي

[7] رواه البخاري

ضد المسلمين في كل مكان! اقرأ هذه الكلمات مما حكاه الله عن سحرة فرعون لما قالوا: (فَأَجْمِعُوا كيدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنْ اسْتَعْلَى!)(طه:64).. إنه (إجماع) على الكيد، كهذا المسمى في السِّحر الإعلامي المعاصر: (بالإجماع الدولي) و(الشرعية الدولية)! والمواجهة لا تكون إلا بعد جمع كلمة الأحلاف وصنع الائتلاف؛ لمحاصرة الحق من كل الجوانب الإعلامية والاقتصادية والعسكرية! (ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا!) ثم يكون توريط المشاركين وتورطهم في الغزو بصورة جماعية، ولو بصورة رمزية! وذلك للتعبير عن (الصف) في اقتراف الجريمة، فيتفرق دم المسلمين في القبائل! قالوا: (وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنْ اسْتَعْلَى!) وتلك والله غاية دول الاستكبار العولمي الجديد، التي يصرح بها تصريحا: السيطرة على العالم بالقوة! والتحكم في مصادر الخيرات والثروات!

ولكن أين أنت أيها الفتى القرآني؟

أنت هنا!.. اقرأ تتمة القصة وتأمل: (قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى. قَالَ بَلْ أَلْقُوا..! فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى. فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى. قُلْنَا لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الأَعْلَى. وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى!)(طه:64-69). إن القرآن الذي بين يديك أشد قوة من عصا موسى قطعا! فلا تبتئس بما يلقون اليوم من أحابيل ثقافية وإعلامية وسياسية وعسكرية! لا تبتئس بترسانة النظام العالمي الجديد وآلياته الضخمة! حَذَارِ حَذَارِ! وإنما قل لهم: (بَلْ أَلْقُوا!).. وَتَلَقَّ عن الله كلماته بقوة، أعني قوله تعالى: (قُلْنَا لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الأَعْلَى!) وبادر إلى إلقائها بقوة، كما تلقيتَها بقوة: (وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى!) إنَّ كلمات القرآن عندما تُتَلَقَّى بحقها تصنع المعجزات! فإذا أُلْقِيَتْ بقوة أزالت الجبال الرواس! من حصون الباطل وقلاع الاستكبار! ولذلك قال الله لرسوله محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم : (وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ

حَكِيمٍ عَلِيمٍ)(النمل:6). وأمره بعد ذلك أن يجاهد الكفار بالقرآن جهادا كبيرا! وهو قوله تعالى: (فَلا تُطِعْ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا!)(الفرقان:52). والمقصود بمجاهدة الكفار بالقرآن: مواجهة الغزو الثقافي والتضليل الإعلامي بمفاهيم القرآن وحقائق القرآن!

إن تلك الثقافة وذلك التضليل هما اللذان يجعلان الشعوب تقبل أن تكون حقولا لتجريب أحدث أسلحة الدمار والخراب! إن العبد لا يكون عبدا تحت أقدام الجلاد؛ إلا إذا آمن هو أنه عبد! ووطَّنَ نَفْسَهُ للعبودية! مستجيبا بصورة لاشعورية لإرادة الأقوياء. وذلك هو السحر المبين. والقرآن هو وحده البرهان الكاشف لذلك الهذيان! متى تلقته النفس خرجت بقوة من الظلمات إلى النور!

فيا له من سلطان لو قام له رجال!

إن المشكلة أن الآخرين فعلا يلقون ما بأيمانهم، فقد ألقوا اليوم (عولمتهم)، لكننا نحن الذين لا نلقي ما في أيماننا! ويقف المشهد - مع الأسف – عند قوله تعالى: (فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى. فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى!) ثم لا يكتمل السياق، وتلك مصيبتنا في هذا العصر!

نعم! إن كلمات القرآن – عندما تؤخذ بحقها- تصنع رجالا؛ لا كأي رجال، إنها تصنع رجالا ليسوا من طينة الأرض! ذلك أنها تصنع الوجدان الفردي والجماعي والسلطاني للإنسان، على عين الله ووحيه؛ فيتخرج من ذلك كله قوم جديرون بأن يسموا بـ(أهل الله وخاصته)! وبهذا يتحولون إلى قَدَرِ الله الذي لا يرده شيء في السماء ولا في الأرض! فَيُجْرِي الله جل جلالُه بهم أمره الكوني في التاريخ! أولئك الذين تحققوا بمعية رسول الله صلى الله عليه وسلم تَعَلُّماً وتزكيةً: (مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْئَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ

الـزُّرَّاعَ لِيَغِيـظَ بِهِمْ الْكُفَّارَ وَعَـدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُـوا وَعَمِلُـوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا)(الفتح:29).
إن كلمات القرآن هي السلاح الأوحد لمواجهة تحديات هذا العصر! إنها تتحدى اليوم - بما تزخر بـه من قـوى غيبيـة - العالمَ كله! فهل من مستجيب أو هل من مبارز؟ (قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَـأْتُوا بِمِثْـلِ هَـذَا الْقُـرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِـيرًا!)(الإسـراء:88) إنها كلمات تصنع كل مـا يـدور بخيالـك من أسـباب القـوة والمَنَعَةِ، من الإنسـان إلى السـلطان! ذلـك أنهـا إذا تفجـر نورُها ببصيرة العبد المتخلق بالقرآن، المتدبر لآيه العظيم، والمتحقـق بِحِكَمِـه؛ جعـل منـه هـو نفسـه سـلاحا يسـحق ظلمات العصر ويكشفها كشفا! وبرهانـا يـدمغ باطـل هـذا الوابــل الإعلامي الــذي يهطــل بالمصــطحات المغرضــة، والمفاهيم المخربة للمخـزون الوجـداني والثقـافي للأمـة! بما يبني من الوجدان الفردي للإنسان ما لا طاقة لوسائل التدمير المادية والمعنويـة معـا – مهمـا أوتيت من قـوة! – على تغييره أو تفتيته! ثم هـو – في الـوقت نفسـه - يبـني النسيج الاجتمـاعي للأمـة، ويقويـه بمـا لا يـدع فرصـة لأي خطاب إعلامي مضاد أن ينال منه! ولو جاء بشر الخطـاب وأشد الخراب! كلمةً وصورةً وحركة!
إنه القـرآن! سـر الكـون ومعجـزة القضـاء والقـدر! (وَمَـا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًـا قَبْضَـتُهُ يَـوْمَ الْقِيَامَـةِ وَالسَّـــماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِـــهِ سُـــبْحَانَهُ وَتَعَـــالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ!)(الزمر:67). هذا الرب العظيم – لو أنت تعرفه – إنه يتكلم الآن! ويقول لك أنت، نعم أنت بالذات؛ لو أنت تستقبل خطابه!: (إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْـكَ قَـوْلاً ثَقِيلاً!)(المزمـل: 5) فَــافْتَحْ صــناديق الــذخيرة الربانيــة بفتح قلبــك للبلاغ القرآني وكن منهم: (الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ وَيَخْشَـوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَـدًا إِلا اللَّهَ! وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِـيبًا!)(الأحـزاب: 39) إذن؛ تتحول أنت بنفسك إلى خَلْقٍ آخر تماماً! وتكـون من (أهل القرآن) أوَ تدري من هم؟ - لو كنتَ حقا منهم! - إنهم (أهلُ الوَعْدِ)! وما أدراك ما (أهلُ الوَعْد)؟ إنهم بَارِقَةٌ قَدَرِيَّةٌ من: (بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا

خِلالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولاً!)(الإسراء:5).. أولئك (أهل الله وخاصته!)([8]) وأولئك أصحاب ولايته العظمى، الذين ترجم لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن الله ذي العظمة والجلال: (مَنْ عَادَى لي وَلِيّاً فَقدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْب!)([9]) ذلك؛ وكفى!

وليس من مصدر لهم إلا كلمات الله! هي المعمل، وهي الزاد، وهي قوت الحياة! وهي المنهاج، وهي البرنامج، وهي الخطة، والاستراتيجيا! وما نستهلك دونها من الكلام إلا (زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا..!)(الأنعام: 112) وليس عبثا أن العرب لما سمعتها تُتْلَى فزعت! فصاحت: (وَقَالَ الَّذينَ كَفَرُواْ لاَ تَسْمَعُواْ لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ!)(فصلت:25). إنه المنهج نفسه الذي يتعامل به العدو اليوم مع القرآن! وهو الأسلوب المخادع عينه الذي تستعمله كل وسائله الإعلامية، بما فيها تلك الأشد فتكا وضَراوةً: الفضائيات المباشرة الكبرى! وإنه لخطأ كبير ذلك الذي يمارسه بعض المخلصين للإسلام، من بعض دعاته؛ عندما يفتون بتحريم صحون الاستقبال الفضائي، أو بطرد جهاز التلفزيون من البيت أو تكسيره! وما كانت محاربة الوسائل حلا ناجعا لدفع البلايا قط في التاريخ! وإنما كان أولى بأولئك أن يدعوا إلى إدخال القرآن إلى البيت! إن البيت الذي يسكنه القرآن لا يدخله الشيطان أبداً!

وكأنما يبدو – عندما أقرأ لبعضهم أو أستمع له، وهو يحرم جهاز التلفزيون، أو يحظر وسائل التلقي الأخرى من الفضائيات إلى الأنترنيت - أننا في حاجة إلى تجديد الثقة بالله أولا! عجبا! ومتى كان شيء أمضى من حد القرآن؟ نعم! فيا من تلعن الظلام في الظلام! إنما كان يكفيك أن تشعل زر النور فقط! أشعله من حرارة قلبك ووجدانك، ومن تباريح إيمانك! أدْخِلِ القرآنَ إلى البيت بقوة تَرَ

---

[8] قال : (أهل القرآن هم أهل الله، وخاصته). رواه أحمد والنسائي وابن ماجه والحاكم، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير:2165.

[9] رواه البخاري.

بنفسك غطرسة الإعلام – هـذا الغـول الـذي أفـزع العـالم وثبط عزائمـه - تتحطم بين يـديك، كمـا تحطمت من قَبْـلُ أوهام سحرة فرعون تحت عصا موسى! وتَرَ كيف أن نـور القــرآن يبتلـع حبـالهم وعصـيهم! وتَـرَ بعينـك أنهم: (إِنَّمَـا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى!)(طه:69)

أَدْخِلِ القرآنَ نصّاً يُتْلَى، وآياتٍ تُتَـدَارَسُ، وحركـةً حيـةً تملأ كيانَ الأسرة كلها، وتعمر وجدانَها، رجـالا ونسـاءً وأطفـالا! إِصْنَعْ ذلك تَرَ عَجَباً!.. تَـرَ كيـف أن الأطفـال الصـغار - من أسرة القرآن - يتولون هم أنفسهم السخرية من فضائيات الطاغوت، ويركلون خبره وصورته! لـيرفعوا رايَـةَ القـرآن عاليةً، عاليةً في السماء!

وإن ذلك لعمري هو عين التحدي الذي جاء به هذا القرآن، لمن كان يؤمن حقا بالقرآن! وما يزال اليقين الذي يعرض به القرآن خطابه الغلاب يرفـع التحـدي منـذ عهـد رسـول اللــه صـلى اللـه عليـه وسـلم إلى اليـوم، بـل إلى يـوم القيامة! إنه يقول لك: أعطـني - فقـط - فرصـة لأخـاطب الناس! أو بالأحرى: أعط الشعوب فرصـة للاسـتماع لهـذا القرآن! قال جل وعلا: (وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَـأَجِرْهُ حَتَّى يَسْـمَعَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْـهُ مَأْمَنَـهُ ذَلِـكَ بِـأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْلَمُونَ)(التوبة:6). ذلك أن كلماتـه كفيلـة بـإخراج الحياة متدفقة بقوة من ظلمات المـوات! ذلـك أنـه أقـوى حقيقة راسخة في هذا الكون كلـه! ذلـك أنـه القـرآن كلام الله رب العالمين! وتلك قصة أخرى!

فلا غَلَبَةَ إذن؛ لمن واجهه القرآنُ المبين، لا غلبةَ لـه البتـة! وإنمـا هــو من المهــزومين بكلمــة الحــق القاضـية عليـه بالخسران إلى يوم القيامـة! (قُـلْ لِلَّذِينَ كَفَـرُوا سَـتُغْلَبُونَ وَتُحْشَــرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَــادُ!)(آل عمــران:12). وقُــلْ لِفَتَى الإيمـانِ حَامِـلِ رايـةِ القـرآن: (لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ. مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَـأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ!)(آل عمران: 196-197). فكل أسـاطيل الظلمـة، وما يمارسونه من غطرسة وتقلب في البلاد من أرض إلى أرض؛ تشريدا وتقتيلا.. كله، كله يرتد مذموما مخذولا؛ لو – ويـا حسـرةً على (لـو) هـذه! - لـو يرفـع المسـلمون رايـة

القـرآن! فيكـون مصـير النفقـات والإعـدادات الاقتصـادية الضـخمة الـتي يحشـدونها؛ لإبـادة الشـعوب المسـلمة المستضـعفة، والـتي تعـد بملايين المليـارات؛ إلى خسـار محتـوم! واقـرأ هـذه الآيـة الصـريحة القاطعـة: (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ!)(الأنفال:36).

لكن الأمـر بقي بيـني وبينـك الآن، أنـا وأنت! هـل أخـذنا الكتاب بقوة؟ تَلَقِّياً وإِلْقَاءً..! وهل حملنا معاً راية التحريـر، تحرير ذواتنا نحن المسلمين من هـذه الوثنيـة الجديـدة، أو هـذا الـدِّين الوضـعي الجديـد: العولمـة! بأصـنامها الثلاثـة: الأول صـنم الإعلام الممجِّد للشـيطان، والثـاني: صـنم التعليم العلمـاني، الـذي يـربي الأجيـال على التمـرد على اللـه! وينتج ثقافـة الجسـد، المقدِّسـة للغرائـز والشـهوات البَهِمِيَّة! والثالث: صـنم الاقتصـاد الاسـتهلاكي المتـوحش! المدمر لكل شيء!

الأمر بقي بيني وبينك الآن، أنا وأنت! هل أخذنا العهد معاً من القـرآن؟ على العمـل بمفـاهيم القـرآن، ومقـولات القرآن؟ أم أننا لا نزال مترددين؟ نرزح تحت تأثير السِّحْرِ الإعلامي والدَّجَلِ السياسي، نؤلـه الأصـنام الوهميـة الـتي صنعتها لنا ثقافة الآخر وبرامجه التعليمية! وننبطح متذللين تحت أقـدام إغـراءات ثقافـة الاسـتهلاك نلتهم كـل مـا يطعموننا كما تَلِغُ الكلاب الضـالة في مـا فَضُـلَ من جِيَـفٍ عن السباع والضباع!

الأمر بقي بيني وبينك الآن، أنا وأنت! فهذا القـرآن – عهـد اللـه - يفتح أبـواب مجالسـه للمؤمـنين، الـذاكرين، المطمئنين، أهل السِّيمَاءِ النبوية، الرُّكَّعِ السُّجَّدِ، السالكين إلى الله عَبْرَ مسالك اليقين! متدرجين بالغدو والآصال، ما بين نداءات الصـلوات ومجـالس القـرآن، مُـرَتِّلِينَ للآيـات، متدارسـين ومتعلمين؛ حـتى يـأتيهم اليقين. تلـك مدرسـة القـرآن؛ لتحريـر الإنسـان، وفَـكِّ إسَـارِهِ العتيـد من أغلال الأوثان، ومفاهيم الشيطان!

فيا فتية القـرآن! ألم يَـأْنِ لكم أن تُوَحِّدُوا القِبْلَـةَ؟.. فإنمـا كلمة القرآن عَهْدُ أمَانِكُم، لم يزل نورُهـا يخـرق الظلمـات

إلى يــوم القيامــة: (قَــالَ مُوسَــى لِقَوْمِــهِ اسْــتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْــبِرُوا إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَــا مَنْ يَشَــاءُ مِنْ عِبَــادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ!)(الأعراف:128).

ثم ألقى الله - جَلَّ ثناؤه - العهدَ إلى رسوله محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسـلم (قُرْآنًـا عَرَبِيًّا لِتُنْـذِرَ أُمَّ الْقُـرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لا رَيْبَ فِيهِ! فَرِيــقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيـقٌ فِي السَّعِيرِ!)(الشـورى:7) قرآنـا يتـدفق عُمْرَانُـهُ الربــاني على الأرض، فيملأ العَــالَمَ أمْنـاً وسَـلاماً، ينطلــق متدرجا مثل الفجر؛ من تلاوة الـذاكرين الْخُشَّـع إلى صـلاة العابدين الركع.. ينطلـق حركـةً قرآنيـة شـعارها: (اُتْـلُ مَـا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّـلاةَ! إِنَّ الصَّـلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَــاءِ وَالْمُنْكَــرِ. وَلَــذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَــرُ. وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَــا تَصْــنَعُونَ!)(العنكبــوت:45). فمن ذا قــدير على ســماع خطـاب اللـه ثم يخلـد إلى الأرض، ويرضـى أن يكـون مـع الْخَوَالِفِ! ويقعـد مـع القاعـدين؟.. كيـف وذاك عهـد اللـه، عهد الأمان! فمن ذا يجرؤ على خرق أمانه؟

ويحك يا صاح!.. تلك الأيدي تمتد إلى يَدِ رسول الله صـلى الله عليه وسلم مستجيبة لتوثيق العهد، وهاتيك: (يَــدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ! فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا)(الفتح:10).. إنها مجالس الرضـوان، تحت شـجرة رسـول اللـه صـلى اللـه عليه وسلم ، تشـرق أنوارهـا الخضـراء على زمانـك هـذا؛ عبر (مجالس القرآن)([10])، مجـالس الخـير المفتوحـة على وجدان كل مَنْ (كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُـوَ شَـهِيدٌ) (ق:37).

فاستمع يا صاح!.. ذلك نداء اللـه يتنــزل عليـك! وتلـك يـد رســول اللــه تمتــد إليــك! ولكنَّ الــزَّمَنَ يَتَفَلَّتُ من بين يَدَيْكَ..! فإلى متَى أنت لا تَمُدُّ يَدَكَ؟!

بقلم: فريد الأنصاري

---

[10] صدر كتيبنا (مجالس القرآن) يعرض منهج القرآن في تدارس الآيات وتدبرها؛ من التلقي إلى التزكية. منشورات ألوان مغربية: 2004.

جَاذِبِيَّةُ الْقُرْآنِ

للداعية التركي: أ. محمد فتح الله كُولَن(*)

ترجمه من التركية إلى العربية الأستاذ: أورخان محمد علي/استنبول

القرآن هو الضوء اللامع للكلمات والحروف في عالم الأزل والأبد. وهو صوت الملكوت الذي يخاطب فكر الإنس الجن. وعندما يتحول إلى لؤلؤة خارقة الجمال داخل صَدَفَةٍ لامعة، يرى فيه أبطال البلاغة والأدب آنئذٍ جمالا لا يبهت، وحُسْناً لا يزول! وسيبقى هذا الكون الكبير- الذي هو معرضٌ للجمال والفن والألوان الإلهية المتناسقة والمتناغمة- موطنَ خَوْفٍ ورُعْبٍ، تجول فيه العفاريتُ والأرواح الشريرة، مع أنه - أي الكون- يعد كتابا؛

* الأستاذ محمد فتح الله كولن أحد أبرز رواد التجديد الديني المعاصرين بتركيا. ولد سنة: 1938م. تفرغ للدعوة إلى الله تفرغا كليا، بالمواعظ والخطب والدروس، واهتم كثيرا بإنشاء المعاهد الإسلامية ومراكز البحث العلمي، وتكوين الأطر. وله نظر استراتيجي متميز. كتب عدة بحوث إسلامية راقية، ترجم بعضها إلى العربية وإلى عدد من اللغات العالمية، من أشهرها: (أضواء قرآنية في سماء الوجدان)، و(النور الخالد) في فقه السيرة النبوية. وله نظرات قرآنية ثاقبة! ورغم أن دعوته سلمية قائمة على منهج التربية والتعليم؛ فقد امتحن بسبب رفع راية القرآن في بلاد العلمانية الحديدية؛ فعاش بين المحاكمات والسجون والمنافي. عجل الله له بالفرج!

كـلُّ سـطر فيـه يُفْشِـي سـرا من أسـرار الملأ الأعلى، وستبقى سطور هذا الكون وأوراقه مبعثرة ومتشتتة؛ حتى يأتي اليوم الذي يتحـول فيـه القـرآن إلى نـور ينهمـر على وجه هـذا الوجـود. ويُجْمِـعُ النـاس – عـدا أصـحاب الأفكـار المسـبقة - أنـه عنـدما أشـرق القـرآن كشـمس سـاطعة؛ زالت الغيوم السوداء، التي كانت تجثم على الدنيا، وظهـر الوجـه الضـاحك للوجـود، وانقلبت جميـع الأشـياء إلى فقرات، وجمـل، وكلمـات؛ لكتـاب مـؤنس ومبهج لقارئـه. عنـد سـماع صـوته انهمـرت الأنـوار على عيـون القلب، وبدأت المشـاعر الـتي فـارت في الأرواح، والألسـنة الـتي أصبحت ترجمانا لهذه المشاعر بإنشاد أناشيد النور.

أجـل!... فاعتبـارا من اليـوم الـذي أضـيئت بـه العيـون والقلوب؛ كم من لغـز في الكـون كـان ينتظـر الحـل منـذ الآلاف السنوات! وكم من مشاكل معقدة متداخلة بعضـها مع البعض الآخر، كانت تنتظر الحلول؛ حُلَّتْ الواحدة منهـا إثـر الأخـرى، وظهـرت العلاقـة الصـحيحة بين الإنسـان والوجود والخالق؛ واضحة وضوح البدر التمام، ولبست كل الألغاز والمعميات لبـاس المعـاني، وانتظمت في مـدارات الحكمة.

القرآن هو قمـة العلم المـتين والصـحيح، وأسـاس التعبـير الدقيق، وقاعدة للتعبير المنطقي. وكما كان هذا الفرقـان العظيم سـيد الكتب السـماوية وغـير السـماوية كـان المخـاطب الأول لـه سـيد الأنبيـاء والمرسـلين. الكتب السابقة جاءت لكي تضـع إشـارات على طريقـه وأعلامـا، أما الكتب الـتي جـاءت بعـده فلكي تقـوم بشـرحه ووضـع الهوامش والحواشي، كل حسب خريطة روحه وغنى ذلـك الروح. عرفه من قبله بصورته التي بشر بهـا الأنبيـاء هـذه الرسالة، وعرفه الذين جـاءوا من بعـده بصـورته المنـزلة الملموسـة، ورأوا التـأثير الكبـير الـذي أحدثـه، والانقلاب العظيم الذي حققه، فانحنوا أمام بلاغتـه الـتي لا تضـاهى، واعترفا بأنه سلطان الكلمة والإعجاز البلاغي. وعندما كان القرآن يتنـزل إلى الـدنيا بموجـات مختلفـة من الأنـوار لم يصـرف أصـحاب القلـوب النـيرة نظـرتهم عنـه أبـدا، ولم

يلتفتوا عنه، بل ارتبطوا به بكل جوارحهم وأرواحهم.. أجل!.. بينما كان ينـزل من السماء كشلال ليملأ القلوب العطشى، فتح أصحاب القلوب الواعية صدورهم له ولم يضيعوا قطرة واحدة منه.

استطاع هذا القرآن أن يوصل صوته إلى أبعد زاوية من زوايا الدنيا في قفزة واحدة، وأن يسكت كل أصوات الشؤم، وأثار في كل قلب يبتغي الحق ولا يملك فكرا مسبقا عواطف جياشة كأنها أصوات خريرة الكوثر، وأطفأ في القلوب التي فتحها نيران الهجر، وفجر في كل روح أمل الوصال والشوق إليه. الطبائع الباردة تحرك به نبض الحرارة، أما القلوب المتولهة برغبة الأبدية والخلود فقد أنِسَتْ به واطمأنت إليه.

وإذا كان هناك من بقي جديدا ونضرا على الدوام في هذه الدنيا الفانية التي يقدم فيها كل جديد ويبلى فيها كل نضر، ويبهت فيها كل لون، فهو القرآن.فهو الكتاب الوحيد الذي استطاع أن يقف منذ نزوله في وجه جميع الأعاصير والعواصف التي هبت، والأمطار والثلوج التي سقطت، وفي وجه جميع الظروف القاسية التي ظهرت أمامه، واستطاع أن يحافظ على أصله ككتاب سماوي وحيد، دون تغيير أو تحريف. لذا فما أن يرتفع صوت القرآن من حنجرة قارئ حتى نشعر وكأنه نزل الآن من السماء! وكأننا مدعوون إلى وليمة إلهية آتية من الجنة! وعندما ينثر اللآلي تشعر القلوب المؤمنة أنها قد سمت واستغنت عن جميع ثروات الدنيا! إن هذا القرآن قلادة بيان منظومة من الكلام الإلهي، وفيض من العلم الذي يشكل الحدود النهائية للإدراك البشري، وخارطة لكل الوجود مرسومة ومزينة ومحاكة بالحرير اللاهوتي. عندما يسمع صوته في أي بقعة يبدو كل كلام وكل تعبير آخر نوعا من الضوضاء لا غير. وفي البقاع التي ترتفع فيها أعلامه يغمر النور قلوب المؤمنين، وتنـزل الحجارة على رؤوس الشياطين، ويعيش الربانيون هناك أعيادا دائمة.

ربط الله ربُّ العالمين ذو القوة المتين سعادةَ الدارين بإرشاده وتوجيهه. فلا يمكن الوصول إلى الهدف من دونه،

ومن يستغني عن إرشاده ووصاياه، ولا يلتجئ إليـه؛ يضـيع في الطرق ويتيـه. هـو آخـر وأكمـل كلام يهـدي من اتبعـه وسار في إثره، ويوصله إلى الغاية والهدف. ومع أنـه يتلى بكل سهولة صباح مساء فلا يُسـتطاع الإتيـان بمثلـه. ومن يسـتمع إليـه بأعماقـه يشـعر أنـه قـد سـمع كـل مـا يجب سماعه، وأصوات هـؤلاء تتـداخل على الـدوام مـع أنفـاس الملائكة.

حتى نزوله وتشريفه للأرض كان كـل نـبي يشـعل مشـعل الهدايـة الـتي يحملهـا من مصـدر نـوره وضـيائه، وحـول الصـحارى القاحلـة حولـه بقطـرات قليـة منـه إلى جنـان وارفة الظلال.

بـل إن العصـور المظلمـة الـتي جـال فيهـا ظلـه أصـبحت عصـورا ذهبيـة. أمـا العصـور الـتي تعـرفت بـه عن قـرب وعاشته فقد تحولت إلى ما يشبه الجنـة. من وهب نفسـه له سما إلى مرتبة الملائكة، وأصبح كل مـا في الكـون من أحياء وجماد أليفا عنده.

من فهم القرآن حق الفهم تصبح البحار الواسـعة كقطـرة ماء، ومن تنـور بنـوره تتحـول الشـمس تجاهـه إلى مجـرد شمعة. أنفاسـه الـتي نشـعرها في أعمـاق قلوبنـا يحييهـا، وضياؤه الذي يغمر الأشياء يجعل كل موجـود برهانـا لحـق تعالى. من يصله صوته – وإن كان في أبعد أرض وأخفاها- دبت في الحياة وكأنه سمع صور إسرافيل. والقلوب الـتي تستمع لصوته وبلغته الخاصة به تتوثب حركة وتحيـا ﴿ هَـذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَـوْمٍ يُوقِنُـونَ ﴾(الجاثيـة:20). أجل هو بصائر ورحمة للذين لم تمت قلوبهم.

لم يكن القـرآن في أي يـوم من الأيـام – مثـل غـيره من الكتب – كتابـا بقي ضـمن إطـار زمن أو مكـان معين من طفولة الإنسـانية. بـل هـو معجـزة كبـيرة وشـاملة وغنيـة تتجـاوز كـل الأزمنـة والأمكنـة، وتلـبي جميـع المطـالب الإنسـانية بـدءا من العقائـد وانتهـاءا بأصـغر الآداب الاجتماعية. وهو يستطيع حتى اليـوم تحـدي الكـل وتحـدي جميع الأشياء.

قام في العهد الذي نـزل فيـه بمواجهـة جميـع اعتراضـات مخاطبيه، وتحداهم أن يأتوا بكتاب، أو حتى بسورة أو بآيـة من مثله. ذُهل منه المعارضون الأولـون لـه، وسُـحروا من بيانه ومن بلاغته، حـتى اتهمـوا الرسـول صـلى اللـه عليـه وسلم بأنه ساحر، وأنه شـاعر. وإزاء أخبـاره الغيبيـة الـتي أتى بها من وراء الأستار فقـدوا صـوابهم فقـالوا عنـه إنـه كـاهن، ولكنهم عجـزوا تمامـا عن الإتيـان بمثلـه. أي أن أبطـال الشـعر والنـثر والخطابـة وأعلامهـا من معارضـيه اضطروا إلى الصمت والخرس والانسحاب إلى جحورهم.

أما منكرو هذا العصر المعاندون فعلى الرغم من تـوارثهم روح المعارضة والإنكار من هؤلاء السـابقين، إلا أنهم على الـرغم من أنـواع الديماغوجيـة والـديالكتيك وجميـع أنـواع المجابهـة والاعـتراض لم يسـتطيعوا إنجـاز شـيء خـارج إظهـار العجـز والغضـب. تغـير الزمـان وتعـاقبت العصـور واختلفت القناعـات ووجهـات النظـر، وحميت حـدة المعارضة والصراع، ولكن القـرآن لا يـزال واقفـا كـالطود الشامخ، وكالبحر الواسع، وكالسماء التي لا تحـدها حـدود، تجـاه جميـع المعارضـين وتجـاه جميـع الاعتراضـات. وهـو مسـتمر في بث روعـه وروعتـه في القلـوب، وفي هدايـة العقول، منذ نزولـه قبـل أربعـة عشـر قرنـا، وتربعـه على عروش قلوبنا!

تقلبت عهود كثيرة ظهر فيها العديـد من مشـاهير البلغـاء، ومدارس فكرية عديدة، ونظم عديدة وفلسـفات مختلفـة. وقد حاول العديد منها هدم القرآن واستعملوا لهذا الغرض كـل مـا لـديهم من وسـائل، ومن سـحر الكلام، من بيـان وبلاغة لهدم القـرآن، وخاضـوا على الـدوام غمـار الحـرب معـه، ولكنهم غلبـوا على الـدوام وارتـدوا على أعقـابهم خائبين أمام الأسس القوية المتناسـقة، والمنطقيـة، الـتي وضعها للكـون وللوجـود وللإنسـان، والإيضـاحات العميقـة لهذه العلاقات.

أجـل لقـد أتى القـرآن بنظـرة متمـيزة للكـون وللأشـياء وللإنسان، بأسلوب غاية في الروعة والسحر. لأنـه يتنـاول الإنسان ككل ضمن الوجـود بأكملـه، ولا يهمـل أي شـيء.

بل يضع كل شيء مهما كان صغيرا في مكانــه المناســب. الأجزاء فيه مرتبطة ارتباطا وثيقا ودقيقا بالكل.. والأجوبــة المختلفة عن أدق الأسئلة الـتي تخطـر ببـال الإنسـان في هذا المعرض الكوني الهائل ترد فيه. وبينمـا يقـوم بتحليـل أدق المسائل الموجودة سواء في عـالم الشـهود أم فيمـا وراء الأستار حتى أدق تفاصيلها، لا يـدع هنـاك أي تـردد أو شـبهه أو علامـة اسـتفهام في العقـول.. أجل! إن القـرآن في جميع هذه التفاصـيل الدقيقـة الـتي يوردهـا لا يـدع أي فراغ في هذا الموضوع لا في العقول ولا في القلـوب، ولا في المشاعر ولا في المنطق؛ لأنـه يحيـط بعقـل الإنسـان وبأحاسيسه، وبمشاعره، وإدراكه؛ بشـكل يجعـل الإنسـان متوجهـا إلى الـذات العليــة. ومثـل جميـع السـائرين في الطريق إلى الله تعـالى ينتقـل من الدهشـة إلى الـذهول، ومن الــذهول إلى بحــر من العواطــف المتلاطمــة، الــتي تجعله ينحني من الخشية وهو يقول: ﴿ قُلْ لَـوْ كَـانَ الْبَحْـرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي نَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَاداً﴾(الكهـف:109). إذن فهـذا هـو القـرآن... المفتاح الذهبي لخـزائن الكلمـات الـتي لا تنفـد ولا تنتهي، والإيمان هو شفرات أو أسنان هذا المفتــاح السـحري. ولا أعتقـد أن من يملـك مثـل هـذا المفتـاح وهـذه الشـفرات سـيحتاج إلى أي شــيء آخــر بخصــوص مسـائل القواعــد والأسس العامة المتعلقة بالإنسان والوجود والكون.

ولا يتوهمن أحد أنني بكلمـاتي العـاجزة هـذه أقـوم بسـرد مديح للقرآن، فمن أنا لكي أمدح القرآن!!

وكمــا قــال الشــاعر: من يســتطيع وصــفه ســوى اللــه الوصاف!

الملائكة الكرام المصطفون صفا صفا

يصفونه ويعظمونه حتى تحسبهم في طواف!

وقد يظهر من لا يستطيع رؤيـة هـذه المـيزة الخارقـة في موضع البلاغـة وجـواهر الكلام، ولكن من الواضـح أن كـل من يستعمل ضـميره يعلم أنـه لم يخطـأ في أي وقت في هـذا الصـدد، ولا سـيما إن أجـال ناظريـه وشـاهد التـأثير العالمي للقرآن.

لقد أحدث القرآن - في أول عهده بالنــزول، وأول عهـده بتشـريفه الـدنيا - تـأثيرا لا يمكن تصـوره في الأرواح وفي العقول أيضا، بحيث أن درجـة الكمـال الـتي وصـلت إليهـا الأجيال التي نشأت في جوه النوراني كانت معجزة قائمـة بذاتها، لا نحتاج معها إلى ذكـر أي نـوع آخـر من معجزاتـه. ولا يمكن العثور على أمثـال لهم في مسـتواهم من ناحيـة التـدين والتفكـير وأفــق الفكــر والخلــق ومعرفــة أســرار العبودية. فالحقيقة أن القرآن قـد أنشـأ جيلا من الصـحابة آنذاك، لا نبـالغ إن قلنـا إنهم كـانوا في مسـتوى الملائكـة! وحـتى اليـوم فهـو يقـوم بتنـوير قلـوب المتـوجهين إليـه، الناهلين من نبعـه، ويهمس في أرواحهم بأسـرار الوجـود. والــذين يَـدَعُونَ أنفســهم بــل أحاسيســهم ومشــاعرهم وقلوبهم، وقابلية إدراكهم؛ تَسْـبَحُ في جـوه الـذي لا مثيـل لـه؛ سـرعان مـا تتغـير عـواطفهم وأفكـارهم، ويحس كـل واحد بأنه قد تغـير، بمقيـاس معين وأنــه أصـبح يعيش في عالم آخر. أجل! ما أن يتوجه إليه الإنسـان من كـل قلبـه، حــتى لا يســتطيع بعــد ذلــك الخلاص من تــأثير ســحره وجاذبيته.

إن القــرآن يتنــاول الطــالب الــذي جذبــه نحــوه فيعجبــه ويشكله من جديد، ويجعل منه شخصا آخر تماما... شخصا رقيقا ذا حساسية مرهفة، إلى درجة أن الإنسان يتأكد بأن أي تغير لا يكون إلا به، بل يمكن في أحيان كثـيرة تحقيـق العديد من الأمور والتي كان يخيل من قبل أنهـا مسـتحيلة التحقيـق، حيث تتحـول هـذه الأمـور في ظلـه إلى حالـة اعتيادية مما يذهل الجميع. والقرآن يقول: ﴿ وَلَـوْ أَنَّ قُرْآنـاً سَيِّرَتْ بِهِ الْجِبَـالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِـهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِـهِ الْمَـوتَى بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعاً ﴾ [الرعد: 13/31] لأنه أجرى في القلوب والعواطف والأحاسـيس وفي العقـول تـأثيرا بـالغ المدى بحيث أن هذا التأثير لا يقل غرابة عن تسيير الجبال أو عن تقطيع الأرض أو تكليم الموتى، أو عن إحياء أجساد بالية منذ آلاف السنين.

كـان كـل صـحابي بطلا في عـالم القلب والـروح، وكـان مجتمع الصحابة مجتمعا متميزا مباركا نشـأ في ظـل فيض

وبركة القرآن. واستطاع هؤلاء الصحابة إجراء تأثير عميـق وكبير على قسم كبير من العالم، حتى أن عملهم هـذا مـا كان يقل من ناحية الروعة الخارقيـة عن قلـع الجبـال عن أماكنهـا أو سـقي الأمـوات مـاء الحيـاة أو ربـط السـماء بـالأرض. ومـا كـان هنـاك أي مجتمـع آخـر يمكن مقارنتـه بمجتمعهم الفريد هذا. فهؤلاء الصـحابة الـذين عجنـوا روح القـرآن وتشـكلت أنفسـهم حسـب مبادئـه السـماوية، أي أصـبحوا من ناحيـة الـروح والمعـنى ترجمانـا للقـرآن، استطاعوا تحقيق المستحيلات وفتحوا به طرق الخلود أما الأرواح الميتة، وغيروا وجه الدنيا، ونقلـوا الإحسـاس بلـذة عـالم الـروح إلى المجتمعـات الـتي احتكـوا بهـا وتعرفـوا عليهـا، وكسـروا الأقفـال الموجـودة على الأفكـار وفـوق الأفواه، ورفعوا الإنسان مرة أخـرى إلى المرتبـة الرفيعـة التي رفعه الله إليهـا وشـرفه بهـا، وقـدموا نظـرة جديـدة وتفسيرا جديدا لموقع الإنسان في الكون بين الموجودات، وركزوا الأنظـار على السـر العميـق الموجـود بين الأوامـر التكوينيـة وبين القواعـد الشـرعية، شـارحين وموضـحين الغايـة والحـدود النهائيـة للقلب والإرادة والأحاسـيس والمشاعر، ومحركين لباعثين أصول وأسس القيم الكامنة والنسـبية الموجـودة في روح الإنسـان، لكي يوجهـوا الإنسان العادي إلى طريق الإنسـان الكامـل، فنجحـوا في جعل الإنسان يحس في كل ما يقـع بصـره عليـه أو يصـل إليه بأحاسيسه، أو يحس بـه قلبـه أصـابع الإرادة والقـدرة الإلهية اللانهائية، أي ربط كـل شـيء إرجاعـه إلى صـاحبه الأصلي.

إن كـان المـؤمن مرتبطـا بهـذا المقيـاس بقلبـه وروحـه وبمشاعره وبأفكاره وبعقله بالله يكون قد ابتعد تماما عن سطحية الارتباط بالجسد وبمطالبه، وينظر إلى الحياة من زاوية أخرى ويـرى لهـا طعمـا آخـر؛ أي ينتبـه إلى مـا وراء أفق هذه الحياة. ومثل رجل الحقيقة هذا يرى ويشاهد في كل شيء في هذا الوجود العلم الإلهي مرفوعا عليـه، ويـد القـدرة عملـة فيـه، فيحس برجفـة، وتتـداخل في نفسـه مشاعر الأمـل والقـرب مـع الخشـية والرهبـة. ومـع كونـه

يعيش في الـدنيا إلا أنـه يحس وكأنـه في ذروة من ذرى الآخرة. عندما يأخذ نفسا يحس بالأمـل والـترقب، وعنـدما يعطي نفسا يحس بالمخافة والمهابـة. ويتحـول دائمـا في السـاحة الـتي رسـمها القـرآن ويعيش حياتـه في ظلال القرآن وألوانه.

إن هـذا القـرآن يوجـه خطابـه للإنس وللجن أجمعين. يأمرهم وينهاهم ويضـع المحرمـات أمـامهم، ينقـل كلامهم وكلام الشياطين. وهو في كل هذا معجز على الـدوام. ولا يكمن إعجاز القرآن هنـا في مجـرد النقـل، بـل في كيفيـة هذا النقـل، والعناصـر والصـور والنقـوش الـتي يسـتعملها ويختارهـا. والناحيـة الإعجازيـة الأخـرى فيـه هي أن هـذه الأخبار التي ينقلها غيبية.

أجـل! فقبـل كـل شـيء فـإن اختيـار القـرآن للعناصـر والأدوات اختيـار رائـع وخـارق للعـادة. ثم إن القـرآن يستعمل هذه العناصر والأدوات في أسلوب مختلف معجز لا يمكن الوصول إله ولا حتى مقاربته. أسـلوب يخـرج عن طاقة الإنس والجن. ولكن لكي نـدرك هـذه الناحيـة علينـا النظـر إلى آيـات القـرآن نظـرة واسـعة وشـاملة، ولكي نوضـح هـذا الإعجـاز علينـا إعطـاء بعض الأمثلـة وبعض التفاصيل:

كثيرا مـا نحس بأحاسـيس ومشـاعر في أعمـاق أرواحنـا، ولكننا نعجز عن التعبير عنها، عند ذلك نئن تحت ألم العجز ونقول كما قال الشاعر" محمد عاكف":

أبكي وأنوح... ولكن لا أستطيع إثارة البكاء!
أحس بالألم... ولكن لا أستطيع بث لواعجي!
آه من قلبي الأخرس!... كم أشكو منه!

أجل! هنـاك العديـد من الأشـخاص الـذين لا يسـتطيعون التعبير بدقة عن أحاسيسـهم العميقـة، عنـدما يتحـدثون أو يكتبـون، فيطـوون قلـوبهم على آلام هـذا العجـز..! وهـذا العجز قد يكون عجزا نسبيا أو مطلقـا، لا يسـتطيع التعبـير بكل سهولة ويسـر عن كـل شـيء، يظهـر هنـا في الجهـة الأخرى الإعجاز النسبي أو المطلق كذلك. فإن كـان هنـاك إعجاز مطلق فهو خاص بالقرآن الكريم فقط.

فإن تناولنا القرآن من هذه الزاوية نستطيع أن نقول: "سواء تكلم القرآن بلسان الشيطان أو الجن أو الملك أو فرعون أو نمرود أو شدّاد فإن الأسلوب المستخدم في البيان والإفصاح يعود للقرآن تماما. وهذا الأسلوب خارق للعادة إلى درجة أن بابه يظل مفتوحا لجميع المعاني الإشارية والرمزية، ويكون صالحا لتفاسير واسعة ولا يوجد أي بيان آخر يستطيع التعبير عن غايته بهذه الروعة المعجزة.

نستطيع- إن أحببتم ذلك- تناول الموضوع من زاوية مختلفة:

لكل كلام توجهات مختلفة نحو اللطائف الربانية في الإنسان كالقلب والسر والخفي والأخفى، حيث يستهدف الوصول إلى هذه اللطائف فإن كانت فيه تناقضات بين هذه المراتب من ناحية المعنى دل ذلك على نقص في هذا الكلام.وهذا النقص الموجود – بنسب مختلفة- في البيان البشري بأجمعه. أما القرآن فبريء من مثل هذا النقص ومنزّه عنه.

وهنا يرد شيء آخر كذلك، وهو إن كانت المعاني الواردة إلى القلب قد نخلت وصفيت من خلال التخيل والتصور والتعقل وحافظت على نفسها ووصلت إلى مرحلة اللفظ والإفصاح عُدّ هذا بيانا ممتازا. أحيانا لا يستطيع الكلام تجاوز هذه المراتب دون تغيير وتبديل، فيبقى في إطار الحديث للنفس، وتفوته فرصة الوصول إلى مرحلة اللفظ والتعبير الخارجي. أما تعبير علام الغيوب – الذي يعلم السر وأخفى- عن هذا الحديث النفسي الصامت فمسألة أخرى لا نريد الخوض فيها، لأننا نريد هنا الاقتصار فقط على الكلام الملفوظ: إن كان الكلام قد أستطيع التعبير عنه كما تم تخيله، أي إن كانت النية وإرادة التعبير متناغمة مع التعبير فمثل هذا الكلام كلام تام وكامل. فإن كان العكس، أي إن لم يستطع التصور احتضان التخيل بشكل كامل والإحاطة به، عدّ هذا التعبير أقل مرتبة من التعبير السابق. فإن لم تستطع ملكة التعقل التعبير عن المعاني المحملة بها؛ فهذا يعني أنها فقدت بعض أعماق

التصور والخيال. وهكذا فالكلام الذي يفقد الشـيء الكثـير بالنسبة إلى مستوى الخيال الرفيـع عنـد مـروره من هـذه المراحـل والمـراتب يعـد كلامـا ناقصـا. أمـا الكلام الـذي يستطيع التعبير عن معاني صاحبه ومفاهيمه ونيتـه بعمـق؛ فهو الكلام الكامل التام. والمثال الرائع الوحيد لمثـل هـذا الكمـال هـو القـرآن الكـريم. لـذا يجب البحث عن هـذا الكمال في محافظة القـران على عمـق الخيـال والتصـور عند قيامه بنقل الكلام عن أي كائن.

وما من أحد يستطيع الإتيان بهذا بمثل هذا الكمـال وبمثـل هذه الروعة. أجل فما من أحد – سواء أكان ذلك إنسـا أم جنا أم ملكا- يسـتطيع اصـطياد المعـاني وهي في مرحلـة التخيـل والنيـة، ثم نقلهـا إلى مرحلـة التعبـير بمثـل هـذا الكمال. أي أننـا لا نسـتطيع أبـدا النجـاح في تحقيـق هـذه المقاييس في الكلام والبيـان. إذن فالبيـان القـرآني الـذي حقـق هـذه المقـاييس بدرجـة الكمـال بيـان يعجـز عنـه الآخرون، أي هو بيان معجز وإلهي.

(رَبَّنَـا آتِنَـا مِنْ لَـدُنْكَ رَحْمَـةً وَهَيِّئْ لَنَـا مِنْ أَمْرِنَـا رَشَـدًا!) (الكهف:10).

وصـلى اللـه على سـيدنا المقتـدى، وأصـحابه ذوي القَـدْرِ العَلِيِّ والتقى.

فِقْهُ وَاقِعِ الْأُمَّةِ

دراسةٌ في الْمَفْهُومِ والشُّرُوطِ والْعَوَائِقِ

أ.د. الشاهد البوشيخي(*)

1- مقدمة في الموجبات

لماذا يجب أن نفقه واقع الأمة؟

فقه الواقع ضـروري لأي تخطيـط، وإلا ضـاع الهـدف لعدم تحديد المنطلق.

وفقه الواقع ضروري لأي تشريع أو تنـزيل، وإلا وُضـع الشيء في غير موضعه، ووسد الأمر إلى غـير أهلـه. ومـا بعثـة الرسـل عليهم الصـلاة والسـلام، في أقـوامهم، إلا مراعاة لفقه الواقع. وما تطور تنـزيل الدين عـبر التـاريخ، إلا مراعاة لتطور الواقع.

وبما أن البشرية اليوم تقف على حافة الانهيار؛ يَدُعُّهَا عُبَّادُ العِجْلِ دَعّاً إلى الدمار، وتسوقها العولمة سـوقا إلى النـار، بكيدها العتيد، ومكرها الشديد، وأذرعها العالمية الجهنمية، بنوكا ومنظمات، تستصرخ ولا من صريخ، وَتَتَظَلَّمُ إلى من فيه الخصام وهو الخصم والْحَكَمُ. قد أحكم الدجال الأعـور قبضـته عليهـا، فخنـق الأنفـاس، ومص دمـاء النـاس، ولا خلاص للناس كل الناس، إلا بظهور دين رب النـاس، ملـك الناس، إله الناس، على يد خير أمة أخرجت للناس.

وبما أن أمتنا اليوم قد شـاخت ووهنت، بمـا كسـبت، حـتى صـارت قصـعة طعـام يتهـارش على خيراتهـا شَـرُّ المفترسين!

بما أن الأمر كذلك فقد صار التجديد للأمة اليوم قلبـا وقالبا، فريضة شرعية، وضرورة حضارية "(1).

ولا سبيل إلى ذلك بغير فقه واقع الأمة؛ ذلك بـأن التجديـد يتطلب:

فقهاً لمـا بـه يكـون التجديـد، وهـو ههنـا الـدين، ممثلا في القرآن والسنة البيان،

وفقهاً لما له يكون التجديد، وهـو هاهنـا الأمـة، ممثلـة في واقع المسلمين.

---

* مدير معهد الدراسات المصطلحية بجامعة سيدي محمد بن عبد الله كلية الآداب - ظهر المهراز - فاس.

وفقهاً لكيف يكون التجديد، وهو هاهنا " السيرة " أو المنهاج، ممثلا في كيفية تنزيل الدين على الواقع وإحلاله فيه.

وكل ذلك مرتبط بالواقع ضربا من الارتباط.

وإذا جاز تصور تحصيل الفقه الأول بمعزل عن الواقع، فإن الفقهين الآخرين لا يستطاع تصور تحصيلها دونه، فوجب الانطلاق من " فقه سديد " للواقع، في أي محاولة للتجديد الصحيح.

2- دراسة في المفهوم:

2-1 مفهوم الأمة (2): الأمُّ في لسان العرب: مداره على القصد، قال ابن منظور: " وأصل هذا الباب كله من القصد. يقال: أمَمْتُ إليه: إذا قصدتَه؛ فمعنى الأمة، في الدين، أن مقصدهم مقصد واحد، ومعنى الأمّة، في النعمة، إنما هو الشيء الذي يقصده الخلق ويطلبونه، ومعنى الأمة في الرجل المنفرد الذي لا نظير له، أن قصده منفرد من قصد سائر الناس ... ومعنى الأمة، القامة، سائر مقصد الجسد. وليس يخرج شيء من هذا الباب عن معنى أممتُ: قصدتُ " (3).

وعند تحليل هذا الأصل إلى مكوناته الدلالية، يتبين أنه يتكون " من أربعة معان:

"1- اختيار، 2- حركة، 3- تقدم، 4- هدف " (4).

فإذا أضيف إلى ذلك أن مدار " الأمة " في لسان العرب على: " الجمع المُوحّد" (بفتح الحاء) كما نبه على ذلك الراغب بحق: " والأمة: كل جماعة يجمعهم أمر ما؛ إما دين واحد، أو زمان واحد، أو مكان واحد، سواء كان ذلك الأمر الجامع تسخيرا أو اختيارا (5).

تبين أن " العناصر " الكبرى المكونة لـ" مركّب " الأمة ثلاثة: عنصر الجمع، وعنصر الوحدة، وعنصر القصد. وسر تفاعلها جميعا كامن في طبيعة الموحّد (بكسر الحاء)، أو " الأمر الجامع "، بتعبير الراغب.

وبه يؤول الأمر إلى أن مناط وجود الأمة هو " الأمر الجامع، تسخيرا أو اختيارا " كما قال الراغب؛ فإذا وجد وجدت، وإذا غاب غابت. ثم من بعد ذلك يأتي التطور

الدلالي للفـظ الأمـة لمن شـاء تتبعـه، والتطـور الوجـودي لكيان الأمة لمن شاء ربط مراحله (6).

هذا عن الأمة في اللسان.

أمـا عن الأمـة في القـرآن والسـنة البيـان، فالـذي يضاف مما يعنينا أمران:

الأمر الأول: أن مسمى الأمـة المقصـودة والمكـونين لها تحدده هذه الآيات:

 وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شـهداء على النـاس ويكون الرسول عليكم شهيدا (البقرة: 143).

 ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويامرون بالمعروف وينهون عن المنكـر وأولئـك هم المفلحـون (آل عمـران: 104).

 كنتم خير أمة أخرجت للناس تامرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله (آل عمران: 110)

ومن الآيات يستفاد:

1) أن " جميـع العناصـر المكونـة لمـركب الأمـة " موجودة في المخاطبين المتبوعين؛ فهم جماعـة لا أفـراد، وهم موحَّدون لا متفرقـون، وهم رسـاليون قاصـدون لا هَمَـل؛ إنهم المهـاجرون، والأنصـار، والـذين اتبعـوهم بإحسان، وإنهم " أمـة واحـدة من دون النـاس"(7)، هم " في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد، إذا اشـتكى منه عضو، تداعى له سائر الجسد بالسـهر والحمى " (8)، وإنهم أمـة " أخـرجت للنـاس " ليكونـوا " شـهداء على الناس "، وليُخْرِجُوا النـاس كـلَّ النـاس من عبـادة العبـاد إلى عبادة رب العباد، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة.

هكذا جعلهم الله تعـالى ليكونـوا الأمـة، وهكـذا كـانوا في واقـع التـاريخ وزمن الخطـاب يمثلـون الأمـة، وهكـذا ينبغي أن يكونـوا في أي تـاريخ وفي أي زمن خطـاب ليصدق عليهم لفظ الأمة.

2) أن " الأمر الجـامع " للمخـاطبين المكـوِّنين للأمـة هو الإسلام؛ فالخطاب في: " جعلناكم "، ومنكم، و"كنتم " ليس إلا للمسـلمين " من قـريش، ويـثرب، ومن تبعهم

فلحق بهم ..." (9) إلى قيام الساعة؛ فيشمل باصطلاح رسول الله صلى الله عليه وسلم: أصحابه وإخوانه، أي يشمل جميع المسلمين على امتداد الزمان والمكان منذ البعثة حتى انتهاء الكون.

3) أن رسالة الأمة ووظيفتها وموقعها، كما تحدده آية البقرة وتفصله آيتا آل عمران، " هو الشهادة على الناس، وهو جَعْلُ من الله رب الناس، ملك الناس، إله الناس، كما جعل آدم في الأرض خليفة، وكما جعل إبراهيم إماما للناس، كما جعل البيت مثابة للناس، وكما جعل وجعل...

ولا شهادة بغير أهلية للشهادة، ولو في الأمور الصغيرة وأشهدوا ذوي عدل منكم (الطلاق: 2) ممن ترضون من الشهداء (البقرة: 282) فكيف بالشهادة على الناس كل الناس؟

وشروط الأهلية في الآية:

أولا: أن تكونوا أمة؛ ولا أمة بغير وَحْدَةِ ما يُؤَمّ، ولا وحدة بغير قَصْدِ من يَؤُمُّ ومن يُؤَمّ. إن مدار الأمّ كله في اللغة على القصد، ومدار الأمة كلها على الوحدة في ذلك القصد.

ثانيا " أن تكونوا وسطا؛ ولا وسطية بغير خِيَرة، كما نصت الآية الأخرى: كنتم خير أمة (آل عمران: 110) . ولا خيرة بغير قوة وأمانة إن خير من استأجرت القوي الأمين (القصص: 26). وإنما توسد الأمانة للأقوياء لا للضعفاء. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: » يا أبا ذر، إنك ضعيف، وإنها أمانة « (10).،

ومع ذلك، كل ذلك لا يكفي لأداء الشهادة، إذ لا بد من الشهود أي الحضور لأداء الشهادة. وحين تكون الشهادة بالخيرة؛ أي بالحال أساسا قبل المقال، ومن أمة لا من أفراد، وعلى الناس جميعا لا على بعضهم، فإن الشهود والحضور لا بد أن يكون حضاريا أي حضورا بالإمامة في كل المجالات، وعلى جميع المستويات، وفي كل الأوقات."(11)

الأمر الثاني: إن اسم الأمة المقصودة والمكونين لها تحدده هذه الآيات:

- ﴿ وإذ يرفع إبراهيم القواعـد من الـبيت واسـماعيل ربنـا تقبـل منـا إنـك أنت السـميع العليم، ربنـا واجعلنـا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسـلمة لـك، وأرنـا مناسـكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم ﴾ (البقرة: 126-127).

- ﴿ يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلـوا الخـير لعلكم تفلحـون، وجاهـدوا في اللـه حـق جهاده، هو اجتباكم وما جعـل عليكم في الـدين من حـرج، ملـة أبيكم إبـراهيم هم سـماكم المسـلمين من قبـل وفي هـذا ليكـون الرسـول شـهيدا عليكم وتكونـوا شـهداء على الناس، فأقيموا الصلاة وآتـوا الزكـاة واعتصـموا باللـه هـو مولاكم فنعم المولى ونعم المصير ﴾ (الحج: 75-76).

ومن الآيات يستفاد:

1) أن اسم الأمة الصحيح هو " الأمة المسلمة "، لا " الأمة الإسلامية "، ولا غـير ذلـك ممـا هـو أبعـد من ذلـك (12).

وفي ذلــك مــا فيــه من تمثيــل الاســم للمســمى ومطابقة المصطلح للمفهوم، إذ شتان في الصلة بالإسلام بين " أمـة مسـلمة " و " أمـة إسـلامية "؛ شـتان بين أمـة تتصف بالإسـلام وتمـارس الإسـلام وخلقهـا الإسـلام، وبين أمة تنسب إلى الإسلام وتحسب على الإسلام وتضاف إلى الإسلام. إن البؤرة غير الهـامش، وإن المضـاف إليـه غـير المضاف.

2- أن اسم المكوّنين للأمة الصحيح هو " المسـلمون "، لا " الإسلاميون "، انسجاما مع اسم الأمة الـتي هم لهـا مكونون وبها كائنون. وشتان في المصطلح والمفهـوم بين " المســلمين " و " الإســلامين "، وشــتان في الأصــالة والرسوخ بين لفظ محدث يكاد يتبرأ منه الـوحي، ولفـظ عتيق مختار منصوص عليه، ضـارب في أعمـاق الـوحي: ﴿ هو سماكم المسلمين من قبل﴾ (الحج: 76).

3) أن قـدم الاسـمين وتعاقبهمـا في دعـوة إبـراهيم عليـه السـلام، يـدل على قـدم المسـميين وتعاقبهمـا في تــاريخ الإســلام ومنهج الإســلام. ولم تعــرف الأرض ولن تعرف دينا الله جل وعلا غير الإسلام.﴿ إن الدين عنـد اللـه

الإسلام (آل عمران: 19) أفغير دين الله تبغون وله أسلم من في السموات والأرض طوعا وكرها وإليه ترجعون (آل عمران: 82) ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين (آل عمران:84). ولذلك قال الله تعالى لرسله وأتباع رسله عبر التاريخ: إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون (الأنبياء: 91) وأن هذه أمتكم واحدة وأنا ربكم فاتقون (المومنون: 52).

وإذن فالأمة المقصودة هي " الأمة المسلمة" بما تتضمنه من خصوصية في المكونات، وما تستلزمه من خصوصية في " الأمر الجامع" لها الذي هو الإسلام من وحدات: من وحدة الإلاه، إلى وحدة الكتاب، إلى وحدة الإمام، بغض النظر عما آلت إليه اليوم في تمثلها للإسلام وتمثيلها للإسلام.

2-2 مفهوم " الواقع ": الواقع في لسان العرب: الساقط والنازل. قال ابن فارس: " الواو والقاف والعين أصل واحد يرجع إليه فروعه، يدل على سقوط شيء "(13). وعند الراغب أن " الواقعة لا تقال إلا في الشدة والمكروه، وأكثر ما جاء في القرآن من لفظ " وقع" جاء في العذاب والشدائد " (14).

أما الواقع في الاستعمال العربي المعاصر فيحتاج إلى دراسة مصطلحية خاصة؛ وصفية وتاريخية على مدى قرن أو يزيد، وفي عدد من المجالات، لتحديد مفهومه الضخم المتشعب، كما يُشير إلى ذلك كثرة الاستعمال وتعدد المجال، وهو ما لا سبيل إليه الآن، لأسباب ترجع إلى واقع الأمة نفسه، الذي حقه أن يفقه ليعالج. لكن لابد من تحديد المراد منه في هذه الدراسة. وذلك ما يمكن تلخيصه في:

1) الواقع هو ما عليه الأمر الآن.

وبما أن الموضوع هو واقع الأمة، فإن المعنى سيكون:

2) الواقع هو الحالة التي عليها الأمة الآن؛ فيدخل فيه كل الجزئيات والكليات التي تتكون منها الأمة الآن،

حسب حالتها الراهنة. وانسجاما مع التحليل السابق لمفهوم الأمة، نترك التصنيف المألوف للواقع الذي يجزئ الحياة العامة إلى واقع سياسي، وواقع اقتصادي، وواقع اجتماعي ... الخ، مستبدلين به التصنيف حسب " العناصر المكونة لمركب الأمة"؛ من واقع الجمع البشري لها، وواقع وحدتها و " الأمر الجامع " لها، وواقع قصدها والرسالة التي تضطلع بها.

3) ويقصد بواقع الجمع البشري للامة: الحالة التي عليها الناس الذين يشكلون الجسم " المادي " للأمة؛ كثرة وقلة، غنى وفقرا، علما وجهلا، صحة ومرضا، شعوبا وقبائل، طبقات ومستويات، مؤسسات وتنظيمات ...

4) ويقصد بواقع وحدة الأمة و"الأمر الجامع" لها: الحالة التي عليها ممارسة الإسلام والتدين في الأمة، والروابط الجامعة المنبثقة عنه من عقيدة وعبادة وأخلاق وشريعة. وما درجة ذلك قوة وضعفا، اتساعا وضيقا، صوابا وخطأ؟

5) ويقصد بواقع قصد الأمة والرسالة التي تضطلع بها: الحالة التي عليها تَأَهُّلُ الأمة للشهادة على الناس، ومدى أدائها لها، في مختلف المجالات، بالحال والمقال؛ ما درجة الأهلية وسطيّةً وخيرةً؟ وما درجة الشهود الحضاري والشهادة، إمامةً وتبليغا؟..

هذا وللواقع زمن يتحرك فيه، ومجال يحيط به ويؤثر فيه، أو يتأثر به.

فأما الزمن: فهو المعيش في بعديه المؤثرين: الماضي القريب، والمستقبل القريب. وهو ما قد يُسمى " بالعصر ". ولا يستطاع تحديده علميا بيوم، أو شهر، أو عام؛ لتحركه المستمر، بتحرك العائش فيه. ويمكن تحديده دراسيا من أجل ضبط المعطيات والنتائج.

وأما المجال فهو المحيط الخارجي الذي يتبادل التأثر والتأثير مع الواقع الداخلي حسب سنن التجاور، تآلفا أو تخالفا. وإنما يحدد بالأثر، ويصنف حسب القوة والضعف، والقبول والرفض.

وأكبر حاضر في المجـال ومـؤثر في واقـع الأمـة إلى حد "الصنع " أحيانا، أو ما يشبه "الصنع "، هـو مـا اصـطلح عليه بـ" الغرب ".

وإذن فالواقع المقصود: هو الحالة الـتي عليهـا الأمـة بكـل مكوناتهـا في هـذا الظـرف المعيش، داخـل المجـال الدولي المحيط، وهي تتحرك فاعلة منفعلة متفاعلة.

3-2- مفهوم الفقه: الفقه في لسان العـرب: " العلم بالشيء والفهم له " (15).

وعنـــد الـــراغب: هـــو التوصـــل إلى علم غـــائب بعلم شاهدٍ، فهو أخص من العلم"(16).

وهو عند الجرجاني : " عبارة عن فهم غرض المتكلم من كلامه " (17).

وقـد أحسـن الحكيم الترمـذي مـا شـاء حين قـال: " الفقه بالشيء: هو معرفة باطنه،والوصول إلى أعماقه " (18). وبعد دراسة الفقه " في عشرين موضعا من القرآن "، تبين لصاحب المنار " أن المراد به نوع خـاص من دقـة الفهم، والتعمق في العلم الذي يترتب عليه الانتفاع به " (19).

وهذا كله يفضي إلى أن:

1) الفقــه فهم دقيــق نافــذ إلى البــواطن والأعمــاق والأغراض.

فإذا أضيف إلى الواقع أمكن تعريفه هكذا:

2) فقه الواقع هو: الفهم الـدقيق النافـذ إلى أعمـاق ما يجري في الظرف المعيش والمجال المحيط.

فإذا أضيف فقه الواقع إلى الأمة صار المراد بـ:

3) فقـه واقـع الأمـة هـو: الفهم الـدقيق النافـذ إلى أعماق الوضـع الـذي عليـه الأمـة بكـل مكوناتهـا، في هـذا الظرف المعيش، داخل المجال الدولي المحيط.

وبتحليل التعريف إلى عناصره نجد:

الفهم بشروطه، وهو أداة الفقه.

والوضع بمكوناته، وهو موضوع الفقه.

والظرف المعيش بجريانه، وهو الإطار الزماني.

والمجال المحيط بتفاعلاته، وهو الإطار الإنساني.

ولا سـبيل إلى فقـه واقـع الأمـة بغـير إحكـام أمـر الأداة: أدمغة وأجهزة ومؤسسات، ومنهجا في التوثيـق والتـدقيق والتحقيق، يقوم على الاسـتيعاب والتحليـل والتعليـل قبـل أي تـركيب، مقـدما عنـد الدراسـة، الوصـف على التـاريخ، والجزئي على الكلي... إلى آخر ما يجب إحكامـه من أمـر الأداة لتأمين ذلك المستوى من الفهم.

كمـا لا سـبيل إلى فقـه واقـع الأمـة بغـير التمكن من مكونات الوضع الموضـوع، والتتبـع الأفقي والعمـودي لمـا يجـــري في الظـــرف المعيش، ويتفاعـــل في المجـــال المحيط.

لا جرم أن هذا العبء ضـخم، وأن التخطيـط لـه بلـه إنجازه يحتاج إلى صفوة من أولي العزم، ولكن إذا وجـدت الشروط وزالت العوائق، فـإن الشـروع بـإذن اللـه تعـالى يكون.

فما هي الشروط اللازمة للمشروع؟

وما هي العوائق التي تقف في الطريق؟

ذلكم ما سنحاول بيانه بحول الله تعالى بإيجاز.

3- دراسة في الشرط

3-1 شرط الشهود: الشهود في لسان العرب ضد الغياب، ولا يمكن لغائب عن الواقع أن يشهد بله أن يفقه.

ومن ثم لا بد لتحقيق الشهود والحضور من أمور:

الرصد لما يجري بمختلف الحواس، شرط سلامتها، عبر مراصد كافية مجهزة معدة لذلك.

التوثيق الأمين الدقيق المنظم لكل ما حقه التوثيق.

التكشيف الأمين الدقيق الشامل لكل ما حقه التكشيف.

إعداد قواعد لمختلف المعطيات، وبنوك لما يلزم له ذلك من المعلومات.

المشاركة الفعلية فيما يجري، كلما أمكن ذلك.

ذلك ومثله، من أجل إعداد المادة اللازمة للشروع في الدراسة اللازمة لتحصيل الفقه وذلك بـ:

التحليل الدقيق العميق المتنوع للمعطيات.

والتعليل الراجح للظواهر في مختلف الصور والاحتمالات.

ثم التركيب المحكم للكليات من الجزئيات.

ثم البناء العام للمراد حسب الحاجات.

لا جرم أن هذا الشهود يحتاج إلى جهود وجهود.

ولكن هل يتصور فقه لواقع الأمة، وهي على ما هي عليه دون بذل لمثل تلك الجهود؟

3-2 شرط الميزان: الميزان في لسان العرب آلة الوزن، ويستعار للعدل، وهو في قوله تعالى: لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط (الحديد: 24) مُنْزَلٌ كالكتاب مع الكتاب، لضبط الأمور ووزنها بالقسطاس المستقيم؛ إذ لا بد لقياس كل شيء من ميزان، ولا بد لقياس أي حق أنه حق من ميزان للحق هو الميزان، وذلك الذي أنزل مع القرآن، وجلّته السنة البيان، ولم يقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا وقد اتضح الميزان، وثبت الميزان، ولم يبق للبشرية إلا أن تدع جهلها وأهواءها لتذعن للميزان وتزن بالميزان.

ذلك الميزان لا بد منه ليقوم فقه واقع الأمة بالقسط؛ ذلك الميزان لا بد منه لأحكام الأداة وإلا اختل

الفهم، ولا بد منه للتمكن من الوضع وإلا اضـطرب الأمـر، ولا بد منه لرصد ما يجـري ويتفاعـل في الظـرف المعيش والمجال المحيط، وإلا كان إخسار في الميزان أو طغيـان. وكلاهما مانع من فقه واقع الأمة في ميزان الميزان، قــال تعــالى في ســورة الــرحمن: ﴿ والســماء رفعهــا ووضــع الميزان. ألا تطغوا في المـيزان، وأقيمـوا الـوزن بالقسـط ولا تخسروا الميزان ﴾.

وذلك يعني أن الطاقم البشري، على سعته ولا سيما النخبة المرجع، والدماغ المفكر المنظر، والجهـاز المحلـل المعلل المركب، أي مختلف الأطر المشـغّلة في مشـروع فقه واقع الأمة، لا بد أن يكونـوا ممن اسـتقام لـديهم أمـر المـيزان، وإلا ضـاعت الأمـوال والأوقـات والطاقـات، ولم تفقه أمة ولا واقع ولا فقه، وتلـك خسـارة مـا أفـدحها من خسارة!!

3-3 شرط الفرقان: الفرق في لسان العرب مــداره على الفصــل والتميـيز، " وفـرقتُ بين الشـيئين. فصـلت بينهمـا. سـواء كـان ذلـك بفصـل يدركـه البصـر أو بفصـل تدركه البصيرة ... والفُرقان أبلغ من الفرق؛ لأنه يسـتعمل في الفرق بين الحق والباطل ... وقولـه تعـالى: ﴿ يـا أيهـا الذين آمنـوا إن تتقـوا اللـه يجعـل لكم فرقانـا ﴾ (الأنفـال: 29) أي: نورا وتوفيقـا على قلـوبكم، يُفْـرَق بـه بين الحـق والباطل، فكان الفرقان هنا كالسكينة والروح في غــيره " (20).

ذلــك فُرْقَــانٌ من الفرقــان الــذي أوتيــه المحقــق " الراغب ".

ومن الفرقـان الـذي أوتيـه صـاحب المنـار قولـه عن الآية: " وكلمة الفرقان فيها كلمـة جامعـة ككلمـة التقـوى في مجيئها هنا مطلقة، فـالتقوى هي الشـجرة، والفرقـان هو الثمرة، وهو صيغة مبالغة من مادة الفرق ومعناهـا في أصــل اللغــة الفصــل بين الشــيئين أو الأشــياء. والمــراد بالفرقـان هنـا العلم الصـحيح والحكم الحـق فيهـا، ولـذلك فسـروه بـالنور، وذلـك أن الفصـل والتفريـق بين الأشـياء والأمور في العلم، هو الوسيلة للخـروج من حـيز الإجمـال

إلى حيز التفصيل، وإنما العلم الصحيح هو العلم التفصيلي الذي يميز بين الأجناس، والأنواع، والأصناف، والأشـخاص، وإن شـــئت قلت بين الكليـــات والجزئيـــات، والبســـائط والمركبات، والنسب بين أجزاء المركبـات، من الحسـيات والمعنويات، ويبين كل شيء من ذلك ويعطيـه حقـه الـذي يكـون بـه ممتـازا من غـيره... وكمـا يكـون الفرقـان في مسائل العلوم وموادها... وفي الموجودات التي استنبطت العلوم منها، يكون في الأحكام والشرائع والأديان.

وفي الحكم بين النـاس في المظـالم والحقـوق وفي الحروب... فقوله تعالى: يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا معناه: إن تتقوا اللـه في كـل مـا يجب أن يتقى، بمقتضـى دينـه وشـرعه، وبمقتضـى سـننه في نظام خلقه، يجعـل لكم بمقتضـى هـذه التقـوى ملكـة من العلم والحكمة تفرقون بها بين الحق والباطـل، وتفصـلون بين الضار والنافع، وتميزون بين النور والظلمـة، وتُزَيِّلـون بين الحجة والشبهة... وهذا النور في العلم الـذي لا يصـل إليه طالبه إلا بالتقوى هو الحكمـة الـتي قـال اللـه فيهـا: يؤتي الحكمة من يشاء ومن يوت الحكمة فقـد أوتي خـيرا كثيرا، وما يذكر إلا أولوا الألباب **(21)** " .

هـذه "الملكـة " من " العلم والحكمـة"، الـتي هي " الثمرة " لشجرة التقوى، وهي النـور في آيـة الحديـد يـا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يوتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نورا تمشون به ، وهي التي بها يكـون الفصل والتمييز والتزييل... والفرقان...، هـذه الملكـة هي الفرقان الشرط، والشرط الفرقـان، من أوتيـه فقـد أوتي خيرا كثيرا، ومن حرمه فقد حرم حرمانا كبـيرا. ولا ينتظـر من المحـــرومين المنطفـــئين المظلمين المختلطين... أن يأتوا في فقه واقع الأمة بشيء. وكيف يزيل الظلمة من لا نور له؟ أم كيف يبصر من لا بصيرة له؟

إن واقع الأمة ليل سادف، وإن فقهه يحتـاج إلى نـور كاشف. ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور.

4- دراسة في العوائق

4-1 ضـعف العلميـة: العلميـة مصـدر صـناعي من العلم. ويقصد بهـا هنـا: مـا يجعـل البحث في موضـوع مـا علميا حقا أي مستوفيا للشروط اللازمة " في البحث التي تتمثل في صحة المنطلقـات، وصـحة المقـدمات، ومن ثم صحة النتائج " (22). ذلك بـأن الـدرس أي درس، ينطلـق من نص، بمفهوم عام للنص، أي المادة الخام الـتي يقـوم عليها البحث. وهذه يُشترط فيها:

1) الصحة، وإلا انهار البناء كله، وللمحدّثين في هذا البـاب ومن حذا حذوهم قصب السـبق. وفي الإعلام اليـوم، وهـو المصدر الأول للمعلومـات، فسـاد كبـير واختلال عظيم، لا يسلم من شر سلطانه إلا الراسخون في العلم.

2) الكفاية، وإلا تعذرت الأحكام كلها أو بعضها، وكـان النقصان في النتائج بقدر النقصان في المعطيات.

ثم إن النص أي نص، بـــالمفهوم العـــام للنص، لا يستخرج منه ما فيه إلا بعد الدرس، وفـق منهج خـاص هـو الأنسب للنص. وتتنوع المناهج لتنـوع النصـوص والمنـاهج، ولكن علميتها جميعا تقوم على:

1) إخضاع المادة المحكوم عليهـا كلهـا للـدرس، للسـلامة من آفات التعميم.

2) تحليـــل تلـــك المـــادة تحليلا كافيـــا يســـمح بـــالإدراك التفصيلي للجزئيات والعناصر المكونة لها بحسـب الهـدف من البحث. ومعلوم أن ذلك يتطلب أدوات وأدوات حسـب طبيعة المادة ونوع الهدف، بدونها يتعـذر النفـوذ إلى خلايـا المادة لاستخلاص المراد.

وما لم يتم ذلـك فسـتظل المـادة المبحوثـة، في الظـرف نفسه، بحاجة إلى بحث.

3) إلقاء الأسئلة المحتملة على كل الظواهر الـتي كشـف عنها التحليـل ومحاولـة الإجابـة عنهـا، ولا سـيما السـؤال: لماذا كان هذا هكـذا؟ وذلـك لتحصـيل الفقـه التعليلي بعـد العلم التفصيلي، والتمهيد للتركيب الابتكاري بعـد التحليـل المختبري.

وهذه الخطوة في الدرس، هي مناط فقـه النص. وبـدونها يقال للباحث: اذهب بسلام، فليس معك حتى الآن كلام.

4) تجميع ما نجح في الاختبار من نتـائج جزئيـة، ومـا صـح من إجابــات وثبت من فــروض أوليــة، ثم تركيبهــا تبعــا لإشـكال البحث والهـدف منـه، في قضـايا كليـة، ثم بنـاء النسق العام منها الذي هو حل الإشـكال وفصـل المقـال، بناء منطقيا لا دعوى فيه بغير دليل، ولا حكم بـدون حجـة، ولا ذكر ولا حـذف، ولا إيجـاز ولا إطنـاب، إلا ولـه في حـل الإشكال نصيب، ومن تحقيق الهدف موجب.

هذه المعالم الكبرى للعلمية في النص والدرس غائبة أو كغائبة في معظم مـا خبرتـه من دراسـات في مختلـف المجالات.

ولا حل شامل قبل حل " معضلة النص" (23)،

ولا حلـل سـليم قبـل حـل " معضـلة قـراءة النص" (24)،

ولا حل حاسم قبل حل " معضلة المنهج " (25).

والخطر كل الخطر أن يستمر البحث، أو يقدم عليه من جيد في واقع الأمة لفقهه، في غيبة مثل هذه المعالم.

والخوف كل الخوف أن لا تحدث توبة علميـة نصـوح، فيسـتمر تبـذير الأمـوال والأوقـات والطاقـات. ومـا أحـوج الأمة إلى أي قدر من الأموال والأوقات والطاقات!

4-2 ضعف المنهجية: منـذ سـت عشـرة سـنة خلت، رُفع ما يمكن تسميته بـ " نـداء المنهج "؛ ولأن زمن الأمـة شبه واقف، وفي آذانها وَقْراً أو شبه وَقْـر، فـإن النـداء مـا زال بحاجــة إلى أن يرفــع عاليــا، وذلكم هــو: " مشــكلة المنهج هي مشـكلة أمتنـا الأولى، ولن يتم إقلاعهـا العلمي ولا الحضاري إلا بعـد الاهتـداء في المنهج للـتي هي أقـوم، وبمقـدار تفقهنـا في المنهج ورشـدنا فيـه يكـون مسـتوى انطلاقنا كما وكيفا. ولأمر ما ألزم اللـه عـز وجـل الإنسـان ممثلا في المسـلم بهـذا الـدعاء، سـبع عشـرة مـرة في اليوم: ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾.

إن حرصنا على استقامة المنهج في كل شيء، ينبغي أن يكون فوق كـل حـرص. وإن المجهـود الـذي نبذلـه من أجل تقويم المنهج ينبغي أن يكون أكبر من كل مجهـود؛ إذ العلم – كما هو معلوم – ليس هو القنـاطر المقنطـرة من

المعلومات، يتم تكديسها وخزنها في أدمغة بني آدم، وإنما هــو صــفة تقــوم بالشــخص نتيجــة منهج معين في التعلم والتعليم، تجعله قادرا على علم ما لم يعلم. والعــالم ليس هو الذي يحمل في رأسـه خـزائن ومكتبـات، ولكنـه الـذي يعــرف كيــف يوظــف مــا في رأســه ومــا في الخــزائن والمكتبات، من أجل إضافة بعض الإضافات.

حقــا إنــه لا بــد من الاســتيعاب أولا – وهــو جــزء من المنهج -، ولكن المهم هو ما بعـد ذلـك من تحليـل وتعليـل وتركيب.

والناظر في أحوال الأمة عامة، والحال العلميـة منهـا خاصة، يلحظ بيسر، أن مسألة المنهج لمّا تعط حظهــا من العنايــة والرعايــة، وأن كثــيرا من الأمــوال والأوقــات والطاقات تضيع بسـبب فسـاد المنهج. وإذا جـاز الـترخص في شيء، فإن البحث العلمي لا ينبغي أن يكون من ذلــك بحال؛ لأنه بمثابـة القلب من جسـد الأمـة، إذا صـلح صـلح الجسـد كلـه، وإذا فسـد فسـد الجسـد كلـه. والأمـة دائمـا بخير، مادام فيها بعث علمي حقا؛ ينير ويشق لها الطريق، ويحقــق ويؤكــد لهــا ذاتهــا التاريخيــة، ماضــيا وحاضــرا ومستقبلا. وبغير المنهج القويم لا يمكن أن يستقيم للبحث العلمي سير.

إن الحــال العلميــة عنــدنا تشــكو من عديــد من الأمـراض، منهـا: التكـديس بـدل البنـاء، والاسـتهلاك بـدل التصدير، والجمع بـدل البحث، والارتجـال بـدل التخطيـط، والفردية بدل الجماعيـة، والتسـرع بـدل التـأني، والتعميم بــدل التــدقيق، والفوضــى في عــدد من المجــالات بــدل الضبط... ومرد ذلك كله – عند التأمل- إلى فساد المنهج.

فهل ستولى هذه المسألة حظها من الاهتمام؛ فنفكر – قبل السـير – في الهـدف من السـير، ومراحـل السـير، وكيفيـة السـير؟ أم سـنظل سـائرين وكفى؟ وحسـبنا أننـا نسير " (26).

أجـل، مشـكلة المنهج هي مشـكلة أمتنـا الأولى، ولن يتم إقلاعنــا العلمي ولا الحضــاري إلا بعــد الاهتــداء في المنهج إلى التي هي أقوم.

ومن ذلك الاهتداء: ألا نقدم ما حقه التأخير، ولا نؤخر ما حقه التقديم.

ومن ذلك الاهتداء: ألا نقدم فقه الواقع على فقه الدين، لتوقف الفقه الأول على الفقه الثاني.

ومن ذلك الاهتداء: ألا نشتغل بدرس النص قبل الإعداد العلمي للنص.

ومن ذلك الاهتداء: ألا نُقدم الدراسة التاريخية على الدراسة الوصفية.

ومن ذلك الاهتداء: ألا نشتغل بالأحكام عن الحِكم، وبالقواعد عن المقاصد، وبالسطوح عن الأعماق، وبالنوافل عن الفرائض،... إلى غير ذلك... إلى غير ذلك، مما يدرأ كثيرا من المفسدات لسلم الأولويات، ويصحح كثيرا من الموازنات بين الثوابت والمتغيرات.

ولا سبيل إلى فقه واقع الأمة اليوم أو غدا، إلا بعد الاهتداء في المنهج للتي هي أقوم.

وإذا كانت العلمية تحل إشكال صحة النتائج لصحة المقدمات، فإن المنهجية تحل إشكال ضبط المراحل لضبط الأولويات، ومن أصول المنهج الصبر وانتظار الفرج. وأحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل.

4-3 غياب التكاملية: التكاملية مصدر صناعي كالعلمية والمنهجية. والمقصود بها أن يكون وضع الباحثين وهم يبحثون، والمشتغلين وهم يشتغلون، مؤسّسا على أن جهودهم أفقيا وعموديا يكمل بعضها بعضا؛ أفراد كانوا أم مجموعات، ومراكز كانوا أم منظمات، ومجامع كانوا أم جامعات ...

وهذه التي بحضورها يحضر خير كثير، وبغيابها ينفتح باب للتبذير كبير.

فإن لم يكن التأسيس السابق فليكن التنسيق اللاحق، وإن لم يكن التنسيق في كل، فليكن التنسيق في بعض، وإن لم يكن التنسيق الدائم فليكن التنسيق المؤقت... لكن ألا يكون تنسيق قط، وتقع الحوافر على الحوافر، وتُكرّر ما فعلت الأوائلُ الأواخرُ، ويشتغل بالموضوع الواحد عشرات، ولا يشتغل أي واحد بعشرات

المواضيع أو مئات ... فذلك منكر في الدين والعلم والمنهج كُبّار، يجب على الواقع فيه التوبة منه، وعلى رائية التغيير بحسب الاستطاعة له.

نعم، إن غياب " العلمية " أو ضعفها، عائق من أكبر العوائق.

وغياب " المنهجية " أو ضعفها كذلك، عائق من أكبر العوائق.

ولكن غياب التكاملية أو ضعفها ليس فقط عائقا من أكبر العوائق، بل هو رأس العوائق، وأم العوائق.

ذلك بأن التنسيق يمثل ضربا من " الشورى " في الطريق، فينتج عنه آليا تصحيح الأعلم للعالم، وترشيد الأكثر منهجية للأقل؛ بحكم الرفقة العادية في الطريق، والتلاقي المتكرر في التنسيق. و " الجهد إذا أحسن صرفه " وفق خطة علمية منهجية متكاملة " كفيل أن يثمر في نابتة الأمة ثمارا ستكون في غاية النضج، ثمارا تخرجها من الحيرة والاضطراب المنهجي، إلى الاهتداء للتي هي أقوم، ومن الكلام عن العلم إلى الكلام بعلم، ومن السير الفرداني فرديا كان أو مؤسسيا، إلى السير الجماعي المنسق المتكامل، ومن المواجهة الانفعالية الآنية التي لا ينقصها حسن الظن، إلى التوجهات الاستراتيجية الشاملة التي لا يشوبها – وإن بعدت الشقة – سوء الظن.

وعلى الناشئة من الباحثين - بعد الله تعالى - المعوّل: أن يؤثروا الآجلة على العاجلة، ويسلكوا الطريق على وعورته صابرين محتسبين " (27).

5- خاتمة في المقترحات

وأحسب أن أهمها، خدمة لما نحن فيه، سبعة:

1) إنشاء " بنك الأمة " للمعلومات، يخزن فيه كل ما يتعلق بالأمة كُلاً أو بعضاً، في الداخل والخارج، ذاتا وظرفا ومجالا.

2) إنشاء " مركز الأمة " للتوثيق، يخصص لجمع الوثائق عن الأمة وتصنيفها وتيسيرها للباحثين، ذاتا وظرفا ومجالا.

3) إنشاء " مكتب الأمة " للتنسيق، يخصص لربط العلاقات بين الباحثين والمهتمين بواقع الأمة أفرادا ومؤسسات، وتنسيق جهودهم، ودفعهم إلى التكامل فيما بينهم، في خططهم ومشاريعهم وإنجازاتهم.

4) إنشاء " مجمع الأمة " الفقهي، يخصص للنظر في " فقه واقع الأمة"، وما يلزم للتمكن منه والانتفاع به. ويكوّن من أئمة في فقه الدين وفقه الواقع وفقه التنزيل.

5) إنشاء مجلة " لسان الأمة"، تخصص للبحوث العلمية المنهجية المتخصصة في فقه واقع الأمة.

6) إنشاء " دار الأمة"، تخصص لنشر البحوث القيمة المتعلقة بفقه واقع الأمة.

7) إنشاء " جائزة الأمة"، تخصص لأكثر الناس خدمة للأمة، وأكثر البحوث نفعا في فقه واقع الأمة.

وبالله التوفيق، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

فاس في 14 شعبان 1423هـ

الهوامش:

(1) أثر مدرسة المنار في تجديد فهم المصطلح القرآني، ص: 3.

(2) لا بد من التنويه هنا بالدراسة التي أعدها الدكتور أحمد حسن فرحات، ونشرتها دار عمار بعمان سنة 1403هـ1983م بعنوان: " الأمة في دلالتها العربية والقرآنية، فهي قيمة.

(3) اللسان / أمّ.

(4) الأمة الشهيدة / المنطلق 26، نقلا عن الأمة والإمامة لعلي شريعتي، ص: 32-33.

(5) المفردات / أمّ.

(6) انظر: الأمة في دلالتها العربية والقرآنية، ص: 20.

(7) الوثائق السياسية.

(8) أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، عن النعمان بن بشير.

(9) الوثائق السياسية.
(10) أخرجه مسلم في كتاب الإمارة، باب النهي عن طلب الإمارة والحرص عليها.
(11) نحو تصور حضاري للمسألة المصطلحية، ص: 12-13.
(12) كالعالم الإسلامي، والشعوب الإسلامية،... وما أشبه.
(13) المقاييس / وقع.
(14) المفردات / وقع.
(15) اللسان والقاموس / فقه.
(16) المفردات / فقه.
(17) التعريفات / باب الفاء.
(18) المنار: 9/348. نقلا عن الترمذي. وليس تحت يدي كتابه " تحصيل نظائر القرآن " الذي منه النص غالبا.
(19) المنار: 9/349.
(20) المفردات / فرق.
(21) المنار 9/540-541.
(22) نحو منهج لدراسة مفاهيم الألفاظ القرآنية، ص: 7-8.
(23) انظر بحث " البحث العلمي في التراث ومعضلة النص".
(24) نظرات في المصطلح والمنهج، ص: 3.
(25) المصدر السابق.
(26) مشكلة المنهج في دراسة مصطلح النقد العربي القديم. ضمن ندوة المصطلح النقدي وعلاقته بمختلف العلوم، ص: 20-21.
(27) نظرات في المصطلح والمنهج، ص: 12-13.

المصادر والمراجع:

- أثر مدرسة المنار في تجديد فهم المصطلح القرآني (من خلال تفسير المنار) / عرض ألقي في ندوة: " مدرسة المنار ودورها في الإصلاح " التي نظمتها المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة بتعاون مع المعهد العالمي للفكر الإسلامي وجمعية الدعوة الإسلامية العالمية، القاهرة 8-9/10/2002 م.
- الأمة في دلالتها العربية والقرآنية للدكتور أحمد حسن فرحات – دار عمّار للنشر والتوزيع – عمان –ط: 1/1403هـ-1983م.
- البحث العلمي في التراث ومعضلة النص / عرض ألقي في ندوة: " تحقيق التراث المغربي الأندلسي: حصيلة وآفاق " المنظمة بكلية الآداب بوجدة تكريما للأستاذ محمد ابن شريفة. أيام: 09-10-11 نونبر 1995.
- تفسير المنار لمحمد رشيد رضا – منشورات دار الكتب العلمية – بيروت، ط: 1/1999 م.
- صحيح مسلم / دار إحياء التراث العربي – بيروت – تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي.
- القاموس المحيط للفيروزآبادي – مؤسسة الرسالة – بيروت، ودار الريان للتراث – ط: 2/ 1407هـ-1987 م.
- المنطلق/ مجلة فكرية إسلامية تصدر عن الاتحاد اللبناني للطلبة المسلمين –بيروت – العدد السبعون / ربيع الأول 1411هـ – أيلول 1990 م.
- كتاب التعريفات للشريف الجرجاني – دار الكتب العلمية، المطبعة الخيرية – مصر – ط:1/1306هـ.
- لسان العرب لابن منظور.
- مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بفاس – عدد خاص بندوة " المصطلح النقدي وعلاقته بمختلف العلوم " – طبعة خاصة بمعهد الدراسات المصطلحية / مطبعة المعارف الجديدة – الرباط / 1993م.

- معجم مقاييس اللغة لابن فارس – تحقيق وضبط عبد السلام محمد هارون، دار الفكر.
- مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني – تحقيق صفوان عدنان داوودي – دار القلم، دمشق، والدار السامية –بيروت، ط: 1/ 1412هـ-1992 م.
- نحو تصور حضاري شامل للمسألة المصطلحية / محاضرة ألقيت بمركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية بالرياض يوم 30/10/1422هـ الموافق 14/1/2002 م.
- نحو منهج لدراسة مفاهيم الألفاظ القرآنية / بحث قدم في ندوة: " القرآن المجيد وخطابه العالمي "- كلية الآداب بأكادير بالمغرب، بتعاون مع المعهد العالمي للفكر الإسلامي – أيام: 14-19/1/1418هـ الموافق 21-26/5/1997م.
- نظرات في المصطلح والمنهج للشاهد البوشيخي،ط: 1/2002 فاس.
ـــــــانتهى.

نَحْوَ مَنْهَجِيَّةٍ مُوَحَّدَةٍ لِتَفْسِيرِ القُرْآن

أ.د. أحمد حسن فرحات
قسم الدراسات الإسلامية/كلية الآداب، جامعة الإمارات

تمهيد:

من المعلوم أن هذه الأمة بدأت رحلتها الحضارية منذ أن تنزلت آيات القرآن على النبي صلى الله عليه وسلم وهو يتحنث في غار حراء، حيث فاجأه الوحي بقوله :] إقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم[وانطلقت القافلة على حُداء الوحي تُنقل خطاها في طريقها الطويل، المليء بالأشواك والصعاب، مسترشدة بالهدي الإلهي، ومستمدة قوتها من كلمات الله التي تحيي موات القلوب وتبعث الحياة والأمل في النفوس.

ولم يمض على هـذه الأمـة كبـيرة وقت، حـتى غـدت على الجـادة، ملتزمــة بــالتي هي أقــوم في كــل شــؤون حياتها، فمكن الله لها في الأرض، وآتاهـا من الأسـباب مـا جعلهـا أمـة شـاهدة على النـاس، تحمـل الخـير، وتشـيع الهدى، وتفتح القلوب المقفلـة، وتضـع عن النـاس الآصـار والأغلال ، وسارت بدعوة الله مشرقة ومغربة، فطَوي لها الزمان والمكان، فأصبحت في أقل من مائـة عـام تشـرق شمسها على الصين شرقا وعلى جنوب فرنسا غربا.

غير أن الأمة لم تبـق في هـذا الخـط الصـاعد دائمـا وأبــدا، فقــد وقعت في مســيرتها أخطــاء، وتعرضــت من أعدائها الحروب ونكبات، مما أفقدها توازنها، وجعل حياتها بين مد وجزر، فمرة تنهض وأخـرى تتعـثر، واسـتمر الأمـر على هذا فترة طويلة من الزمـان.. وعلى الـرغم من كـل ذلك بقيت الأمة محتفظـة بهويتهـا، غـير متنكـرة لرسـالتها إلى أن تم القضـاء على الدولـة العثمانيـة آخـر حلقـة في سلسلة الخلافة الإسلامية.

ثم جاء الاسـتعمار الغـربي، فأنـاخ بثقلـه على صـدر هذه الأمة، وأخذ يعمل في تقطيع أوصالها، وتبديد ثرواتهـا، وتغيير قيمها، وتوجيهها بعيدا عن عقيدتها وتاريخها، فطـرح لها بديلا عن الإسلام، وأوهمها أن تقدمها ونهضـتها مرهونـا بقيمه وتقاليده، وأنشأ لذلك المدارس والجامعات، وأخـرج مجموعـة من النخب الـتي رباهـا على عينـه وأشـربها من معين ثقافته، فجعلها حاكمة على النـاس تسـير في إطـار ما خطط لها، بعيدة عن الإسلام وقيمه، مما جعل الانتمـاء إلى الإسـلام موضـع نظـر ، ومثـار جـدل. وهكـذا نشـأت المذاهب والأفكار المغايرة للإسلام وأصـبحت الأمـة أشـبه بالطائرة المخطوفة يتحكم بها خاطفوها ويسيرون بها في الاتجاه الذي يرغبون غير عابئين بوجهـة الركـاب الأصـلية، وغير مبالين بما يصيـبهم من أهوال وأخطار.

وإذا وصل الأمر إلى مـا وصـل إليـه من هـذا الـتردي والانحطاط، فكيف يمكن لهذه الأمـة أن تنهض من جديـد؟ ومـــا هي الطريـــق الــتي ينبغي أن تســـلكها؟ ومـــا هي الخطوات التي لا بد منها للإقلاع نحـو الهـدف المنشـود؟..

هذا ما نحاول الإسهام في الإجابة عليه في الصفحات القادمة بإذن الله.

- الأمة والقرآن:

لقد بدأت هذه الأمة مسيرتها نحو مشرق الشمس يوم أن هبط جبريل الأمين على قلب محمد صلى الله عليه وسلم وهو يتحنث في غار حراء، وكانت كلمة] اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم[هي الإكسير الذي بدأ يفعل فعله في حياة النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم في حياة من استجاب لدعوته من أمته، وانتقلت هذه الأمة بتأثير القرآن وقوته الفاعلة من الجاهلية إلى الإسلام فكانت أول أمة تولد من خلال نصوص كتاب، وتنبثق من بين حروفه وكلماته، وتقوم على إيحاءاته وتوجيهاته، ثم تخرج به إلى الناس وحيا إلهيا يحرك القلوب، ويهز النفوس، ويعيد صياغة الحياة وصناعة التاريخ.

ولقد كان النبي صلى الله عليه وسلم حريصا على هذه الطاقة الهائلة أن تتبدد ، أو يقل تأثيرها في نفوس أصحابه، فقصرهم على الاستمداد منها، والاستقاء من معينها، ونهاهم عن الالتفات إلى غيرها والتطلع إلى سواها، ومن ثم فقد اشتد غضبه حينما رأى صحيفة من التوراة في يد عمر رضي الله عنه وقال : " لو كان موسى حيا ما وسعه إلا أن يتبعني"، بل إنه نهى أصحابه صلى الله عليه وسلم أن يكتبوا عنه شيئا غير القرآن وقال : (من كتب عني شيئا غير القرآن فليمحه) كل ذلك إدراكا منه صلى الله عليه وسلم لقوة كلمة الوحي التي يمحو الله بها ما يشاء ويثبت.. وحفظا لها من أن يشاركها ما يقلل من تأثيرها أو يضعفها في مرحلة الانطلاق الأولى.

ولقد كان العرب في عصر نزول القرآن في مستوى يمكنهم من التفاعل مع النص القرآني، والاستجابة لإيحاءاته، والتأثر ببلاغته وسحر بيانه، ولم يكن هناك ما يحول بينهم وبين ذلك، فقد كانوا يفهمون معانيه، ويتذوقون حلاوته، ويعرفون أساليبه، فعكفوا على قراءته

ودراســته وأمعنــوا في تــدبر آياتــه واستكشــاف أســراره، فغاصوا في أعماقه باحثين عن درره، مستنبطين لأحكامه، مستلهمين لتوجيهاته، فوجدوا فيه حلا لمشكلاتهم، وشـفاء لما في صدورهم، ونورا لأبصارهم وبصائرهم، وهدايــة في كل شأن من شؤون حياتهم.

ثم بـدأ هـذا المسـتوى السـامق يتـدنى شـيئا فشـيئا بفعل اختلاط العرب بغيرهم، وبدخول الأمم والشعوب في دين الله أفواجا، فتطرق الضعف إلى اللغـة، وفشـا اللحن في اللسـان، وظهـرت الحاجـة إلى ضـبط القـراءة، وإلى ضبط الفهم، والاستنباط، فنشأت لذلك علوم العربية، من نحو، وصـرف، وبلاغـة. ونشـأت علـوم القـرآن من رسـم، وقراءات، وتفسير، كمـا نشـأت العلـوم الشـرعية الأخـرى من حــديث ، وفقــه، وأصــول. إلى غــير ذلــك من علــوم العربيــة وعلـوم الشـريعة والـتي تهـدف كلهـا إلى خدمـة القــرآن الكــريم وتمكين المســلم من أن يرتــع بمســتواه للتعامل مع القـرآن، والتفاعـل معـه، والتـأثر بـه، وليكـون قــادرا على فهم معانيــه واســتنباط أحكامــه، واســتلهام توجيهاته.. كما كان الشأن في جيل الصحابة رضـوان اللـه عليهم.

وسـارت الأمـور في هـذا الاتجـاه الصـحيح فـترة من الزمن، وكانت كل تلك العلـوم في خدمـة القـرآن الكـريم والمساعدة على فهمه. ثم بـدأت هـذا العلـوم مـع الـزمن تتسع شيئا فشيئا، وتنحو منحى الاستقلال، وأصبح في كـل علم من العلوم ما لا يحصى من الكتب والمؤلفات، وغدت الثروة العلمية والفقهية التي خلفهـا لنـا علماؤنـا ينـوء بهـا العصـبة أولــو القــوة وتفـنى الأعمــار دون الإحاطــة بهــا، وإدراكهــا، وتمثلهــا، على الــرغم من أنهــا تتفــاوت صــحة وضـعفا، وخطـأ وشـذوذا، وبعـدا عن الجـادة واسـتقامة عليهــا، ومــع تطــاول الــزمن، واتســاع العلــوم، وتنـامي اســتقلاليتها وتخصصــها، أصــبحت هــذه العلــوم محــور الدراسة، وموضع الاهتمام، فبعد أن كانت وسيلة مساعدة على فهم القرآن غدت غايـة بحـد ذاتهـا، ومن ثم انصـرف إليهــا الدارســون وطلبــة العلم يولونهــا كــل اهتمــامهم،

ويوجهون إليها معظم نشاطهم، وينفقون في سـبيلها جـل أوقاتهم وأعمارهم، ولم يعد الاهتمام بـالقرآن والسـنة في المقـام الأول وإنمـا أصـبح في المقـام الثـاني، ومن ثم ضعفت الصلة بالقرآن والسـنة، ولم يعـد لهمـا ذلـك الأثـر الفعـال في تغيـير السـلوك الـذي عرفنـاه في الأجيـال السابقة، فتوقف العقل المسلم عن النشاط، وفقـد كثـيرا من فاعليته التي أفاضها عليه القرآن نتيجـة تفاعلـه معـه، وظهر من ينادي بإغلاق باب الاجتهاد نتيجـة العجـز العقلي الذي ألقى بظلاله على المجتمع الإسلامي.

ثم في مرحلـة من مراحـل تـاريخ هـذه الأمـة يغـدو القرآن في واقع بعض المنتسبين للعلم وسيلة يستعان بها على إيضاح بعض العلوم التي كانت وسيلة لإيضاحه فكـأن مهمته تقصر على تقديم شواهد لتوضيح القواعـد النحويـة والبلاغية وغيرهـا من العلـوم الأخـرى، ولـو طلب إلى من يقرر هـذه القواعـد البلاغيـة أو النحويـة أن يعرفنـا بمعـنى الآيـة الـتي يستشـهد بهـا للاسـتدلال على قاعدتـه لوقـف أمامنا فاغرا فاه متعجبا ولألفيناه يقول بأن اختصاصه إنمـا هـو النحـو أو البلاغـة، وأنـه لا يعـرف من الآيـة إلا موضـع الشاهد. وهكـذا يغـدو القــرآن – في نظـر أمثـال هـؤلاء – مجموعة من الشواهد التي يستخدمها علماء هـذا الزمـان لتوضيح قواعدهم.

ومثل هذا الذي قيـل في شـأن علـوم العربيـة يمكن أن يقـال في بعض العلـوم الشـرعية، كعلم الكلام " علم التوحيد" الذي تأثر بمنطق أرسطو وفلسفة يونان، وتحول إلى مـدارس فكريـة واتجاهـات مذهبيـة، تنحـو منـاحي مختلفة وتتخذ طرائق قـددا، فغـدت كـل فرقـة تبحث في القــرآن عن شـاهد يؤيـد وجهـة نظرهـا ويشـهد لقولهـا ومـذهبها، وبـذلك وقعت الأمـة في داء الفرقـة والاختلاف وكل يريد أن يقـول بـأن مـا ذهب إليـه هـو الـذي جـاء بـه القرآن.

أما ما انتهى إليه الأمـر في شـأن هـذه العلـوم فقـد تجاوز ذلك كله، حيث أصبحت كثير من هذه العلـوم بـدائل للقرآن تدرس في غيابه وفي منأى عنه، ظنا منهم أن كـل

العلوم التي حواها القرآن قد استخرجت منه وأفردت بالتأليف بكتب مستقلة، ومن ثم لم يعد في القرآن إلا نصوص تتلى بقصد البركة والثواب الأخروي.

إن ما آلت إليه الأمور من انحطاط في العقل، وجمود في الفهم، وعكوف على كتب المتأخرين حفظا وتسميعا واختصارا وتلخيصا، أو شرحا وتحشية، أو صياغة عل طريقة النظم، أو غير ذلك مما شغل به الناس أنفسهم في العصور المتأخرة لن يحل مشكلة، ولن يبعث نهضة، ولا يمكن أن يكون سبيلا لاستنقاذ أمة ولا باعثا على استئناف حياة جديدة.

إن الحياة لا يمكن أن تدب في هذه الأمة إلا بوحي الله] وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان [ولا يمكن أن تكون إلا في الاستجابة لهذا الوحي] يا أيها الذين آمنوا استجيبوا الله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم[فكلمات الله ووحيه هما القادران على بعث الحياة من جديد في هذه الأمة، وهما القادران على إمدادها بما تحتاجه من القوة والطاقة.

إن نصوص القرآن الكريم غنية بالمعاني التي لا تحد، والتوجيهات التي لا تنفد، والأحكام التي تلبي حاجة الأمة إلى يوم القيامة، ومن ثم فلا بد من العودة إليها ودراستها في سياقها واستلهامها في حل مشكلاتنا، ومعالجة قضايانا، وبدون ذلك لا يمكننا أن نفهم حكمة الأمر الإلهي بكثرة قراءة القرآن، وتدبر معانيه والتفكر في آياته، واستخلاص عبره وعظاته، وليس من حقنا أبدا أن ننهي مهمة القرآن ووظيفته الأساسية بقصره على مجرد التلاوة واحتساب الثواب على ذلك عند الله. ثم الاستغناء عنه بما كتبه الناس، واستبدال الذي هو أدنى بالذي هو خير.

إن ما كتبه العلماء واستنبطه الفقهاء يعتبر ثروة كبرى لهذه الأمة في مجال العلم والمعرفة لا يمكننا أن نفرط فيها أو نتجاهلها، ولكننا في نفس الوقت لا يمكننا أن نعتبرها بديلة للقرآن أو مغنية عنه كما لا يمكننا أن نعتبرها الكلمة الأخيرة التي ليس بعدها مقال، وإنما ينبغي

دراسـتها في ضـوء النصـوص القرآنيـة والحديثيـة، وليس بمنـأىً عنهـا، وهـذه الدراسـة في ضـوء النصـوص كفيلـة بتوسيع دائرة الرؤية، وتوضـيح كثـير من الجـوانب الـتي لا يمكن أن تتضح في غيبة النصوص، ممـا يـؤدي إلى تـرجيح بعض الأقـــوال على بعض، أو ظهـــور فهم جديـــد نتيجـــة لمراعــاة ســياق الكلام، أو لمراعــاة مجمــوع النصــوص الواردة في القضية أو غير ذلك من المقتضيات التي تحكم الفهم والاستنباط.

ثم إن هناك جوانب كثـيرة ممـا عـرض لـه القـرآن لا تــزال بكــرا تحتــاج إلى بحث ودرس، وذلــك فيمــا يتصــل بالدراســات النفســية والإنســانية والــتي لم تأخــذ حظهــا الكافي من البحث والـدرس في تراثنـا الثقـافي والعلمي، وما مس منها مس مسا رفيقا، وما يزال بحاجة إلى مزيـد من البحث والنظر، وبخاصة في ضـوء الدراسـات الحديثـة التي توسعت كثيرا في هذه الجوانب، وأصبحت لهـا علـوم مستقلة، ودراسات مستفيضة.

إن على الباحثين الإسلاميين أن يأخذوا هذا كلـه بعين الاعتبـار، وأن تكـون اجتهـاداتهم في ضـوء النصـوص، وألا يكتفـوا من النص بـالجزء الظـاهر الدلالـة على الغـرض، وإنما عليهم أن يوسعوا نظرهم في سياق الكلام وسـباقه، وأن يتعرفوا على مناسبته التي نزل بها، ويراعوا مقاصـده وحكمه، ويضموا إليه أشباهه ونظـائره، إلى غـير ذلـك من الأمور التي لا بد من مراعاتها لمن أراد أن يجـانب الخطـأ ويقارب الصواب، هذا بالإضافة إلى ما سبق أن أشرنا إليه من ضرورة الاطلاع على كتب الـتراث، والتعـرف على مـا قاله الأئمة العلماء والمجتهـدون السـابقون، وتفهم وجهـة نظرهم وطريقة استنباطهم، فإنهم القـدوة لنـا في أصـول الفهم ومنـــــاهج الاســـــتدلال، وإن اختلفنـــــا معهم في الاستنتاجات والمسائل، كما اختلفوا هم فيما بينهم.

- القرآن والعلوم الشرعية:

من المعلـــوم أن العلـــوم الشـــرعية وثيقـــة الصـــلة بالقرآن، وأنها تهدف إلى خدمته وتوضيحه. ولكن لا بـد لنـا من أن نـبين كيـف نشـأت هـذه العلـوم، ومـا لابس هـذه

النشـأة من أمـور أدت إلى نـوع من الخلـل والقصـور في بناء هذه العلوم، وخير من تعرض لمعالجة هـذا الموضـوع العلامة عبد الحميد الفراهي، ونحن مضطرون – هنــا- إلى بيـان وجهـة نظـره، وفي ذلـك يقـول : لا يخفى أن الـدين معظمه ترقيـة النفـوس وتربيـة العقـول وإصـلاح الأعمـال الظاهرة ، أي : الأخلاق والعقائد والشرائع.

والقرآن قد تكفل بكل ذلـك على أحسـن مـا يكـون، وكـل ذلـك متصـل بعضـه ببعض وبجميعـه تحصـل التزكيـة وهي الغاية والمطلوب.

ولهـــذه الثلاث نشـــأت ثلاثـــة علـــوم: علم الأخلاق والمواعظ/ وعلم الكلام / وعلم الفقه.

ولمـا كـان القـرآن مصـدر هـذه العلـوم، كـان لا بـد لأصول تأويله أن تكون شاملة لكل هذه العلـوم، ولكن مـا حدث هو أن جعل علم التأويل مقصورا على الفقه وهو ما عـرف بعلم " أصـول الفقـه" ومن ثم أصـبح علم الأخلاق وعلم الكلام بعيدين عنه فلا نجده مستعملا فيهما.

أما علم الأخلاق فاتسـع بأهلـه حـتى تشـبثوا بكـل مـا راقهم وأعجبهم، فمنهم من بناه على الحكمة العملية التي تلقوهــا من الفلاســفة، ومنهم من اعتمــد على تجاربــه، ومنهم من بناه على الروايات الضـعيفة، وربمـا أخـذوا من القرآن حسب تأويلاتهم الركيكة، وذلك لظنهم بأنه لا حاجة إلى صــحة الاســتدلال في الــترغيب والــترهيب، ومــدح الحسن، وذم القبيح.

ومنهم طائفــة من المتصــوفة تكلمــوا في العقائــد يؤولون القرآن إلى ظنونهم لجهلهم بالعربية وبحقيقة هـذا الـدين، ويزعمـون أنهم أعـرف بـالقرآن وأسـراره، وتجـد أمثلة ذلك في كلام ابن عربي.

وأما علم الكلام فأصـحابه لاشـتغالهم بالملاحـدة قـل اعتمـادهم على النقـل، وكـان معظم احتجـاجهم بمـا تجنح إليه العقول لكي يسلم لهم الخصم، وربما يؤولون القـرآن إلى غير مراده فرارا من اعتراضات المعاند، إذ لم يهتــدوا لصحيح التأويل وتوفيق المعقول بالمنقول فجعلوا للتأويـل

– لا نقول أبوابا بل ثلما – يخرجون منه حين لا يمكنهم الدفاع على وجه مستقيم.

حتى قال بعضهم – كالرازي عفا الله عنه -: إنه لا اعتماد على ظاهر القرآن لعله يكون من المتشابهات.

فجعل القرآن كله ملتبسا، ولم يكن ذلك إلا لعدم تأسيس أصول التأويل العامة التي يعتمد عليها في كل ما يستنبط من القرآن سواء كان من فروع الشرائع أو الأخلاق والعقائد.

فإن جعلت القرآن أصلا لتمام علم الدين – كما هو في الحقيقة – صار من الواجب أن يؤسس أصولا للتأويل بحيث تكون علما عاما لكل ما يؤخذ من القرآن"[11].

- القرآن وعلوم اللسان:

وكما كانت للفراهي نظراته النقدية في بناء العلوم الشرعية، كذلك كانت له نظراته في علوم اللسان، وفي ذلك يقول : "كما أن الله تعالى وعد بحفظ متن القرآن حيث قال:] إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون[فكذلك وعد ببيانه حيث قال :] ثم إن علينا بيانه[ومن بعض إنجاز وعده حفظ اللسان العربي من الاندراس والمحو وجعله حيا باقيا. وكذلك حفظ الاصطلاحات الشرعية كـ " الصلاة" و " الزكاة" و " الجهاد" و"الصوم" و " الحج" و " المسجد الحرام" و " الصفا" و " المروة" و " مناسك الحج" وأمثالها، وما يتعلق بها من الأعمال المتواترة المأثورة من السلف إلى الخلف والاختلاف في اليسير فيها لا اعتبار له.

فإذا نظرت إلى ألفاظ مصطلحة في الشرع، ولا تجد حدها وتصويرها في القرآن، فلا تجمد على أخبار الآحاد فتسقط في الريب. بل اقنع بالقدر الذي اجتمعت عليه الأمة، ولا تؤاخذ إخوانك فيما ليس فيه نص صريح ، ولا عمل مأثور، من غير خلاف، فهذا هو السبيل الوسيع والمعنى الواضح من القرآن في اصطلاحاته الشرعية.

فأما في سائر الألفاظ وأساليب حقيقتها ومجازها فالأصل فيه كلام العرب قديم، والقرآن نفسه.

---

[11] - التكميل في أصول التأويل للفراهي 3-4.

وأما كتب اللغة فمقصرة، فإنها كثيرة ما لا تأتي بحــد تــام ولا تمــيز بين العــربي القح والمولــد ولا تهــديك إلى جرثومـة المعـنى، فلا يـدري مـا الأصـل ومـا الفـرع؟ ومـا الحقيقة والمجاز؟

فمن لم يتمــرس بكلام العــرب واقتصــر على كتب اللغة، ربما لم يهتـد لفهم بعض البعض المعـاني من كتـاب الله.

وأما باقي علوم اللسـان كـالنحو والمنطـق والأصـول والبيان والبلاغة والقافية، فالكتب المدونة فيها – مع كـثرة فوائدها – أشد تقصيرا من كتب اللغة لفهم القرآن .

أما النحو فيحتاج إلى زيادات، بل ليس من شــأنه إلا تأسيس أصول كلام وسيط بين السقط والرفيع، فلا ينبغي للمفسر أن يبالغ في تطبيق كلام الله على أصـول النحـو. فيرممه ويؤوله فيظن الظان أنه جـائر عن قصـد السـبيل. بل عليه أن يأتي بشهادة من أشعار العـرب ليعلم الجاحـد انه لهو الأسـلوب الأعلى "- وقـد ذكـر الفـراهي بعضـا من هذه الإضافات في كتابه " أساليب القرآن ".

وأما المنطق فمـداره التـدقيق في اسـتعمال ألفـاظ التحليل والنفي والاستثناء وسوق الدليل.

وأما علم البيان فحاله كحـال النحـو لا يتصـدى لكلام يتفجر من صدوع القلب الحي، وما أبعده مما يتصــبب من سـماء الـوحي، فـترى صـاحب الـوحي – بـل كـل داع إلى الحق- ينفث ما في قلبه كيـف مـا دعتـه الحـالات، فطـورا يــأتي بالمجــاز، وطــورا بالحقيقــة، ولا يــراعي إلا فهم المخاطبين والعادة الجارية في لسانه. فيفهمه المخاطب، ولكن الـذي يجمـد على علم البيـان فإنـه يـدب كالنمـل، ويخبط كالأعمى، ومن رأى الزبـور وكتب الأنبيـاء السـابقة علم أن المجاز له مجال وسيع في الوحي".

- وقد وضح الفراهي كثيرا ممـا أراده في علم البيـان في كتاب الذي خصصه لذلك وهو " جمهرة البلاغة"-.

وأما الأصول: فلا نجحـد فضـل من أسـس هـذا الفن، فـــإنهم لم يأخـــذوه من اليونـــان ولا من الهنـــد، ولا من غيرهمـا، بـل دعت الحاجـة إلى وضـع أصـول لاسـتنباط

الأحكـــام من الكتـــاب والســـنة فهم قـــدوة في هـــذا الفن الشـــريف، ولكن الخلـــف لم يهتـــدوا إلى تهذيبـــه وإصـــلاحه، فبقي هـــذا الفن واهي القـــوى ضـــعيف الأركـــان، ولمـــا يبلـــغ مبلغا يستحق به اسم الفن، فترى فيه اختلافا كثـــيرا ينجـــر إلى اختلاف الأحكـــام ، وليس الأمـــر كـــذلك في النحـــو والمنطق وغيرهما من الفنون.

وأمـــا البلاغـــة فاســـتخرجوها من أشـــعار العـــرب، والأشعار لضيق مجالها كانت مقتصرة على جودة الســـبك، ورشـــاقة اللفـــظ والبـــديع، أمـــا حســـن الاســـتدلال وربـــاط المعـــاني وضـــرب الأمثـــال، والاعتبـــار من القصـــص، وجـــر الكلام ثم العـــودة إلى عمـــوده، والوعـــد والزجـــر والتأكيـــد بشدة يقين المتكلم، والإعراض إعراض الترفع، والحســـرة حسرة المعلم الناصـــح، وغـــير ذلـــك ممـــا تجـــده في خطب البلغاء ووحي الأنبياء، فلم يذكروه في علم البلاغة"[12].

- لسان القرآن:

" الكتب المتعلقة بلسان القرآن من حيث دلالته على معانيه ثلاثة:

كتاب " المفردات" و كتـــاب " الأســـاليب" و كتـــاب " أصول التأويل".

ففي كتـــاب المفـــردات يبحث عن الألفـــاظ المفـــردة، ويكشـــف عن معانيهـــا الخاصـــة، بحيث تتضـــح لهـــا الحـــدود واللوازم، وما يتصل بها وما يفترق عنها، وما يشـــابهها ومـــا يضادها فيحيط العلم بدلالة الألفاظ المفردة.

وفي كتـــاب الأســـاليب يبحث عن دلالـــة الـــتراكيب المختلفـــة الوجـــوه الـــتي تـــدل عليهـــا الأســـاليب المتنوعـــة ، فيحيط العلم بما يدل عليه الكلام من المعاني حتى يحفظ عما لا دلالة عليه.

وفي كتاب أصول التأويل يبين ما يؤخـــذ من المعـــاني المختلفة وما لا يؤخذ، وما يمكن بينها الجمع.

ثم بعد ذلك يســـتوي الســـبيل إلى فهم ربـــاط معـــاني القرآن من القرآن"[13].

---

[12] - فاتحة نظام القرآن للفراهي : 12-14.

[13] - مفردات القرآن للفراهي :1.

- علم الحديث والقرآن:

ويرى الفراهي أن السبيل السوي إنما يكون بتعلم الهدي من القرآن، وأن تبني عليه دينك، ثم بعد ذلك تنظر في الأحاديث: فإن وجدت ما كان شاردا عن القرآن – حسب بادي النظر أولته إلى كلام الله، فإن تطابقا قرت عيناك، وإن أعياك توقف في أمر الحديث واعمل بالقرآن وقد أمرنا أولا بإطاعة الله ثم بإطاعة رسوله، ولا شك أن الأمرين واحد، فإن لم يرد الله أن نقدم كلامه على ما روي عن رسوله فماذا إذن أراد بهذا الحكم[14].

[14] - التكميل في أصول التأويل : 65-66.

- أصول التأويل:

قد جعل العلماء طرفا من أصول التأويل جزءا لأصول الفقه، أي فروع الشرائع، فلكونه جزءا صار غير مستقل، ولم يعط من الاهتمام والإتمام ما يعطي لفن مستقل. ثم لكونه مستعملا للفرو ع، لم يعط من التيقظ والاحتياط ما يعطي لأصول الدين، ومعلوم أن الاختلاف في فروع المسائل هين فهان أمره.

وكذلك لكونه مشتركا بين الكتاب والسنة لم يختص بما هو أهله؛ إذ السنة معظم العناية فيها نقد الرواة، فلا يتعمق في متونها من قبل خواص ألفاظها وتراكيبها – إذ الروايات أكثرها بالمعنى.

وأما القرآن فيعض عليه بالنواجذ فيحافظ على حروفه وحركاته، ويعتمد على ما يستنبط من نظمه وإشاراته، وتنفى الاحتمالات الضعيفة عن تأويل آياته، ويرد ما اشتبه منه إلى محكماته، فلا يغتفر فيه الأخذ بالهوينى ، لا في تأويله ولا في تنزيله.

فلو جعل هذا الفن من علم التفسير لعظم محله في الدين، ولأفرغ له الجهد التام، وأخذ فيه بالاحتياط من الآراء الضعيفة، وبعد ذلك يكون استعماله في الحديث وسائر الكلام على التبع والتطفل.

وبالجملة فإدخال أصول التأويل في أصول الفقه – بمعنى علم المسائل الفرعية – حط علم التأويل عن محله ومكانته بثلاث مراتب:

الأولى : كان حريا بالبحث المستقل فصار له شركاء، فغدا مغمورا معها.

و الثانية: أنه كان معظم علم التفسير، لكونه أصولا لفهم القرآن، وإذ جعل من علم الفروع لم يبالغ في تنقيحه حتى يصير علم التأويل كالمعيار والميزان، مثل علم النحو والعروض، فما بلغ مبلغ الفن المنقح، بل كان قصاراه أن يكون أصولا خاصة مثل قوانين الأمم المختلفة.

فيقال إن أبا حنيفة – رحمه الله – جرى على هذه الأصول. والشافعي – رحمه الله – على تلك .

والثالثة: أن القرآن ليس مقصـورا على الفـروع، بـل معظمه يتعلق بالعقائد وبواطن الأخلاق .

وإذ جعل من أصول الفقه صـار مقصـورا عليـه. ومن هذه الجهة وقع خلل فاحش في بناء العلم الذي يهدي إلى فهم القرآن."[15].

وهكذا نرى أن تدارك الخلل في بناء العلوم الشرعية ينطلق من إعادة النظر في بنـاء علم أصـول الفقـه بحيث يكون " علم أصول التأويل" ومن أجل ذلك وضع الفـراهي مشروع كتابه " التكميل في أصول التأويل" ثم وضع كتابه "القائد إلى عيون العقائد " لتدارك قصور علم الكلام، كما وضع كتبا لتدارك تقصير علـوم اللسـان منهـا : " مفـردات القرآن" و " إمعان النظر في أقسام القرآن" و " أسـاليب القرآن" و " جمهرة البلاغة" وأتبع ذلك بكتب متممة منها : " دلائل النظام" و " إمعان في أقسام القرآن" و " فاتحـة نظام القرآن" و " تفسير الفرقان بالفرقان" وهي مقدمـة تفسيره الذي طبع منه عدد من السور القرآنية، كما وضـع مذكرات خطية بين يدي تفسيره، وأشار بها إلى مـا ينبغي أخـذه بعين الاعتبـار والاهتمـام عنـد تـأليف هـذا التفسـير. وتعتبر جهود الفراهي في هـذه العلـوم محاولـة جـادة في إعــادة بنائهــا على أســس راســخة لتكــون منطلقــا إلى مستقبل أفضل لهذه العلوم.

- هيمنة القرآن:

لقـد وصـف اللـه القـرآن بأنـه المهيمن على الكتب الإلهية السابقة، وذلك في قوله تعـالى :] هـو الـذي أنـزل عليك الكتـاب مصـدقا لمـا بين يديـه من الكتـاب ومهيمنـا عليه[بمعـنى أن مـا جـاء في القـرآن أولى بالاتبـاع لأنـه الصـورة الأخـيرة للـوحي الإلهي والناسـخ لمـا خالفـه من الشــرائع الســابقة الــتي جــاءت لفــترات زمنيــة محــدودة ولأقــوام معيــنين، أمــا الصــورة الأخــيرة فهي الصــورة المتوافقـة مـع الفطـرة البشـرية والمتناسـبة مـع عمـوم الرسالة وامتداد الزمان والمكان.

---

15 - التكميل في أصول التأويل للفراهي :2-3 – بشيء من التصرف.

وإذا كـان لا يقبـل مـا خـالف القـرآن من الرسـالات السابقة لأن القرآن مهيمنا عليها، فكـذلك ينبغي أن تكـون للقرآن الهيمنة في مصادر الشريعة الإسلامية وفي العلوم التي نشأت في الأصل لخدمته وتوضيحه وبيانـه، ولا يجـوز أبدا أن تعكس القضية، فيصبح القرآن وسيلة لتوضيح تلـك العلوم، كما لا يجـوز أن تكـون تلـك العلـوم هي المهيمنـة على النص القـرآني، ولـو كـانت الحجـة أن هـذه العلـوم مسـتمدة في الأصـل من القـرآن. ذلـك أن دراسـة هـذه العلـوم بمعـزل عن القـرآن أوجـد خللا في تصـور بعض المفهومات والقيم الإسلامية، كما أوجد خللا في العلاقـات بين مفرداتهـا. وبـذلك تضـخمت بعض القيم على حسـاب البعض الآخر، مما أفقد التصور الإسلامي توازنه وتناســبه، وانعكس كل ذلك في سلوك المسلم الذي مـا زال يعـاني من أثر ذلك.

إن دراسـة قيم الإسـلام ومفهوماتـه، ومفرداتـه من خلال النص القرآن وترتيب آياته وسوره لا يكشف عن سر الحسن وسحر البيان – وهو أمر مطلوب – فحسـب وإنمـا يتعـدى ذلـك إلى دلالات جمـة، فكم من المعـاني الدقيقـة والحكم الغامضة مودعة فيه. والـواجب على المتأمـل في القرآن أن يتدبره كلمة كلمـة ويـؤمن بـأن تحت كـل منهـا حكما وفي نظمها سرا، وإذن يوشك أن يتجلى عليـه بعض المكنون حسب استعداده"[16].

ولقـد أدرك أهميـة هـذه الحقيقـة – حقيقـة الدراسـة للإسـلام وقيمـه ومفهوماتـه من خلال القـرآن ومـا يـترتب على ذلـك من تصـور صـحيح ومتـوازن بعيـد عن الإفـراط والتفريط بعض علماء النهضة المعاصـرين ونـرى أنموذجـا لهم في ما كتبه العلامة عبد الحميد الفراهي الهنـدي، ومـا كتبه بديع الزمان سعيد النورسي، وما كتبه سيد قطب في معظم مؤلفاته وبخاصة " مقومات التصور الإسـلامي" و " في ظلال القرآن" ، وسنقتطف فيما يلي فقرات مما كتبه هؤلاء الأعلام عن هذه الحقيقة:

- مع بديع الزمان النورسي:

---

[16] - جمهرة البلاغة للفراهي : 50 بشيء من التصرف.

يرى النورسي " أن القـرآن الكـريم قـد حافـظ على التوازن في بيانه التوحيد بجميع أقسامه مع جميـع مـراتب تلك الأقسام وجميع لوازمه، ولم يخل باتزان أي كان منها. ثم إنـه قـد حافـظ على الموازنـة الموجـودة بين الحقـائق الإلهية السامية كلها.. وجمع الأحكام التي تقتضيها الأسماء الإلهيـــة الحســنى جميعهــا مــع الحفــاظ على التناســب والتناسق بين تلك الأحكام. ثم إنه قد جمع بموازنـة كاملـة شؤون الربوبية والألوهية.

فهـذه " المحافظـة والموازنـة والجمـع" خاصـية لا توجد قطعا في أي أثر كـان من آثـار البشـر، ولا في نتـاج أفكـار أعـاظم المفكـرين كافـة، ولا توجـد قـط في آثـار الأوليـاء الصـالحين النافـذين إلى عـالم الملكـوت، ولا في كتب الإشــراقيين المــوغلين في بــواطن الأمــور، ولا في معـارف الروحـانيين الماضـيين إلى عـالم الغيب، بـل كـل قسم من أولئك قد تشبث بغصـن أو غصـنين فحســب من أغصان الشجرة العظمى للحقيقة، فانشغل كليا مـع ثمـرة ذلـــك الغصـــن وورقـــه، دون أن يلتفت إلى غـــيره من الأغصان؛ إما لجهله به أو لعـدم التفاتـه إليـه. وكـأن هنـاك نوعا من تقسيم الأعمال فيما بينهم.

نعم! إن الحقيقــة المطلقــة لا تحيــط بهــا أنظــار محدودة مقيدة. إذ تلزم نظرا كليـا كنظـر القـرآن الكـريم ليحيط بهـا. فكـل مـا سـوى القـرآن الكـريم – ولـو يتلقى الـدرس منـه – لا يـرى تمامـا بعقلـه الجـزئي المحـدود إلا طرفــا أو طــرفين من الحقيقــة الكاملــة فينهمــك بــذلك الجانب ويعكف عليه، وينحصر فيه، فيخـل بالموازنـة الـتي بين الحقائق ويزيل تناسقها إما بالإفراط أو بالتفريط" [17].

ويقول النورسي في مكان آخر : " إن من يتأمـل في كتب حكماء الإشراقيين، وكتب المتصـوفة الـذين اعتمـدوا على مشهوداتهم وكشفياتهم دون أن يزنوها بميزان السنة المطهرة يصدق حكمنا هذا دون تردد. إذا فعلى الرغم من

---

[17] - الكلمات : 512.

أنهم يسترشــدون بــالقرآن ويؤلفــون في جنس حقــائق القرآن إلا ن النقص يلازم آثارهم، لأنه ليست قرآنا"[18].

- مع سيد قطب:

يــرى ســيد قطب أن للمنهج القــرآني في عــرض مقومات التصـور الإسـلامي خصـائص تمـيزه عن أي منهج آخر، وقد ذكر منها الخصائص التالية:

أولا : إنه يعرض " الحقيقة" كما هي في عالم الواقـع، في الأسلوب الذي يكشـف كـل زواياهـا، وكـل جوانبهـا، وكـل ارتباطاتها، وكل مقتضياتها. وهو مع هـذا الشـمول لا يعقـد هذه الحقيقة، ولا يلفها بالضباب، بل يخاطب بهـا الكينونـة البشرية في كل مستوياتها.

ثانيـا : إنـه مـبرأ من الانقطـاع والتمـزق الملحـوظين في الدراسات " العلمية" والتأملات " الفلسـفية"، والومضـات " الفنية" جميعا، فهو لا يفرد كل جانب من جوانب "الكل" الجميـل المتناسـق بحـديث مسـتقل، كمـا تصـنع أسـاليب الأداء البشرية. وإنما هو يعرض هـذه الجـوانب في سـياق موصول، يرتبط فيه عـالم الشـهادة بعـالم الغيب، وتتصـل فيـه حقـائق الكـون والحيـاة والإنسـان بحقيقـة الألوهيـة، وتتصل فيه الدنيا بالآخرة، وحياة النـاس في الأرض بحيـاة الملأ الأعلى، في أسلوب تتعذر مجاراته أو تقليده.

ثالثا : إنه مع تماسك جـوانب الحقيقـة وتناسـقه يحافـظ تمامـا على إعطـاء كـل جـانب من جوانبهـا – في الكـل المتناسق- مساحته، التي تساوي وزنـه في مـيزان اللـه – وهو الميزان- ومن ثم تبدو " حقيقة الألوهية" وخصائصـها، وقضـية " الألوهيـة والعبوديـة" بـارزة مسـيطرة محيطـة شاملة، حتى ليبدو أن التعريف بتلك الحقيقة، وتجلية هـذه القضية هو موضوع القرآن الأساسي. وتشغل حقيقة عالم الغيب بما فيه القدر والدار الآخرة مساحة بارزة، ثم تنـال حقيقـة الإنسـان، وحقيقـة الكـون، وحقيقـة الحيـاة أنصـبة متناسقة، تناسق هذه الحقائق في عالم الواقـع. وهكـذا لا

---

[18] - الكلمات : 513.

تدغم حقيقـة من الحقـائق، ولا تهمـل، ولا تضـيع معالمهـا، في المشهد الكلي الذي تعرض فيه هذه الحقائق.
رابعا: إنه يتميز بتلك الحيوية الدافقـة المـؤثرة الموحيـة – مـع الدقـة والتقريـر والتحديـد الحاسـم – وهي تمنح هـذه الحقـائق حيويـة وإيقاعـا وروعـة وجمـالا، لا يتسـامى إليـه المنهج البشـري في العـرض، ولا الأسـلوب البشـري في التعبير . ثم هي في الـوقت ذاتـه تعـرض في دقـة عجيبـة وتحديـد حاسـم، ومـع ذلـك لا تجـور الدقـة على الحيويـة والجمال، ولا يجور التحديد على الإيقاع والروعة.
ولا يمكن أن نصـــف نحن، في الأســـلوب البشـــري، ملامح المنهج القرآني، فنبلغ من ذلك ما يبلغـه تـذوق هـذا المنهج. كمـا أنـه لا يمكن أن نبلـغ بهـذا البحث كلـه عن "خصائص التصـور الإسـلامي ومقوماتـه" شـيئا ممـا يبلغـه القرآن في هذا الشأن."[19].

- مع الفراهي :
أما الفراهي فـيرى في نظم القـرآن دليلا على نظم الديانة كلها وذلك حينما يقول: " القرآن هو الأصل للإسلام والإيمـان، أي: الشـرائع والعقائـد، قـال تعـالى :] وكـذلك أوحينا إليك روحا من أمرنـا مـا كنت تـدري مـا الكتـاب ولا الإيمان، ولكن جعلناه نورا نهـدي بـه من نشـاء من عبادنـا وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم[[20].
وإذا كـان القـرآن على المطابقـة التامـة للـدين صـار النظر في نظامه باعثا على النظر في الشـرائع والعقائـد، فما كان أصلا وأساسا، نبه القرآن على كونـه كـذلك، فـإذا تـــدبرت في القـــرآن هـــديت إلى حكمـــة الـــدين ونظـــام أموره"[21].
وهكذا يظهـر لنـا من خلال هـذه الفقـرات المقتبسـة لأعلام النهضـة المعاصـرة مقـدار الخلـل الـذي حصـل في المفهومات والقيم الإسلامية نتيجـة لدراسـتها بمعـزل عن

---

[19] - مقومات التصور الإسلامي : 65-68.
[20] - الشورى : 52.
[21] - دلائل النظام : 46.

القـرآن، الأمـر الـذي يسـتوجب تصـحيحا بـالعودة بهـا إلى القرآن الـذي يعيـد إليهـا توازنهـا، ويعطي كلا منهـا نصـيبه الذي يستحقه في مـيزان القـرآن، فلا تطغى حقيقـة على أخرى، ولا تدغم حقيقة في حقيقة غيرها.

- منهجية دراسة القرآن:

إذا كان لا بد لنا في فهم الإسلام وقيمـه ومفهوماتـه من الاعتمـاد على القـرآن والارتكـان إليـه ليكـون فهمنـا صحيحا، وقيمنا متوازنة، ومفهوماتنا سديدة، فإن هذا الأمر يسـتدعي منهجيـة موحـدة وأصـولا متفقـا عليهـا، ليكـون القرآن حكما يفصل بين النـاس فيمـا اختلفـوا فيـه – كمـا أراده الله أن يكون -:]. وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه.[[22].

أمـا إذا اختلفنـا في القـرآن، فكيـف يمكن أن يكـون حكمـا؟ ومن ثم فلا بـدلنا من منهجيـة موحـدة تمكننـا من تحقيق هذا الهدف، ولكن أنى لنا ذلك مع اختلاف العقول؟ واختلاف المشارب؟ واختلاف الدراسـات والثقافـات؟!! .. ومن الذي يملك أن يضع هـذه الأصـول والقواعـد؟ وكيـف يمكن أن تكون وسيلة للالتزام فضلا عن الإلزام؟

إن القضــية كبــيرة وتحتــاج إلى جهــود جماعيــة متضـافرة، ويمكن أن يعقـد لأجلهـا مـؤتمرا ومـؤتمرات، وذلـك نظـرا لأهميتهـا ومـا يمكن أن ينبـني عليهـا، فهي تسـتحق أن تبـذل فيهـا الأوقـات والأمـوال، وأن تكـد من أجلها القرائح والعقول، لأنها تجمع علماء الأمة على أصول وقواعد لفهم كتاب اللـه، بعيـدا عن الزيـغ واتبـاع الأهـواء، وبذلك تلتقي كلمة الأمة على نهج سديد وكلمة سواء.

وريثما يتم مثـل هـذا المـؤتمر نـرى لزامـا أن نطـرح بعض الأفكـار والملاحظـات للمناقشـة بحيث يمكن البنـاء عليهـا فيمـا بعـد، ولعلهـا تسـهم في بيـان المـراد وإضـاءة الطريق.

هل القرآن حمال أوجه؟

---

[22] - البقرة : 213.

من الأقوال المأثورة في تراثنا :" لا يفقه الإنسان كل الفقه حتى يرى للقرآن وجوها".

وقد تركت هذه الكلمة آثارها في كتب التفسير، وكتب العقائد والفرق، فكثيرا ما يجد القارئ لتفسير آية أقوالا عدة، ووجوها مختلفة، يقف حيالها حيران، لا يدري ماذا يأخذ، وماذا يدع، وكذلك الآية الواحدة تستشهد بها الفرق المختلفة، وكل منها تحملها المعنى الذي تريد، وهي تود نصرة قولها وتأييده بآية من القرآن ليكون مقبولا عند الناس، لا مجال للاعتراض عليه، حتى قال بعضهم : إن القرآن قد وسع الفرق الإسلامية كلها، نظرا لأن كل فرقة تحاول جاهدة أن تجد مستندا لما ذهبت إليه من القرآن.

والحقيقة أن هذا القول المأثور " لا يتفقه الإنسان كل الفقه حتى يرى للقرآن وجوها " يمثل نصف الحقيقة، والنصف الآخر هو " وحتى يستطيع أن يرجح واحدا من هذه الوجوه" ذلك أن رؤية وجوه عدة لمعنى الآية يدل على التبحر وسعة المعرفة الأفقية، ولكن ترجيح واحد من هذه المعاني يدل على الرسوخ في العلم والتعمق في الفهم. والقرآن نزل ليكون حكما بين الناس فيما اختلفوا فيه، والحكم لا بد أن يكون له قول واحد ليكون حجة وقابلا للتنفيذ، أما إذا تعددت أقوال الحكم ولم يمكن الترجيح بينها فكيف يمكن أن تكون حكما. وهكذا بدلا من أن يحكم القرآن بين الناس فيما اختلفوا فيه، يختلف الناس في فهم القرآن. وينشأ عن ذلك فرقة وخصام ومذاهب واتجاهات. على حين نجد القرآن يأمرنا بالاعتصام بحبل الله وينهانا عن التفرق:] واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا[[23] . كما أن الرسول صلى الله عليه وسلم بين لنا المخرج حين نزول الفتن بما رواه علي عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: قلت يا رسول الله، ستكون فتن، فما المخرج منها؟ قال: "كتاب الله، فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله،

---

[23] - آل عمران : 103

ومن ابتغى الهـدى في غـيره أضـله اللـه، وهـو حبـل اللـه المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المسـتقيم، وهـو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تختلف بـه الآراء ولا تلتبس بـه الألسن، ولا يخلق عن كثرة الـرد، ولا تنقضـي عجائبـه، ولا يشبع منه العلماء، من قال به صدق، ومن حكم بـه عـدل، ومن عمــل بــه أجــر، ومن دعــا إليــه هــدي إلى صــراط مستقيم"[24].

والشـاهد في هـذا الحـديث قولـه : قلت : يـا رسـول الله، ستكون فتن فما المخرج منها؟ قـال :كتـاب اللـه. ثم قال : " وهـو الصـراط المسـتقيم، وهـو الـذي لا تزيـغ بـه الأهواء، ولا تختلف به الآراء، ولا تلتبس به الألسن.".

كما بين لنا القرآن الكـريم لأن سـبب اختلاف النـاس منشؤه البغي بينهم مع وجـود البينـات والعلم والكتـاب :] كــان النــاس أمــة واحــدة فبعث اللــه النبــيين مبشــرين ومنذرين وأنزل معم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ومـا اختلـف فيـه إلا الـذين أوتـوه من بعـد مـا جاءتهم البينـات بغيـا بينهم فهـدى اللـه الـذين ءامنـوا لمـا اختلفـوا فيـه من الحـق بإذنـه واللـه يهـدي من يشـاء إلى صــراط مســتقيم[-[25] معــنى الآيــة : " كــان النــاس أمــة واحدة" أي على شريعة من الحق فـاختلفوا، " فبعث اللـه النبيين مبشرين ومنـذرين" ، فكـان أول نـبي بعث نوحـا،" وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفـوا فيه، وما اختلف فيـه إلا الـذين أوتـوه من بعـد مـا جـاءتهم البينات بغيا بينهم" أي من بعد ما قامت عليهم الحجج، وما حملهم على ذلك إلا البغي من بعضهم على بعض.

كما ينهانا أن نتفرق ونختلف كما اختلف أهل الكتــاب إذ قال :] ولا تكونوا كالذين تفرقـوا واختلفـوا من بعـد مـا جاءهم البينات وأولئك لهم عـذاب عظيم[[26] وخـاطب نبيـه

---

[24]- أخرجه الترمذي والدارمي وغيرهما من طريق الحارث الأعور عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وفيه كلام، ويميل القرطبي إلى توثيقها انظر تفسير القرطبي : 1/5 ، وكثرة العمال : 1/45، وسنن الدرامي : 2/435 بتحقيق محمد أحمد ودهمان ، طبعة دمشق 1309هـ.

[25] - البقرة : 213.

[26] - آل عمران : 105.

في شأن أهل الكتاب] إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شيء[[27] وبين سبب العداوة والبغضاء بينهم بقوله :] ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظا مما ذكروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة[28][.

فتحصل من ذلك كله أن منشأ الاختلاف لا يرجع إلى أصل الكتب المنزلة، وإنما يرجع إلى سلوك الناس تجاهها نتيجة بغيهم بينهم أو نسيانهم حظا مما ذكروا به.

وقد بين لنا القرآن الكريم أن كونه من عند الله يقتضي عدم وجود الاختلاف فيه،] ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا[.[29] فدل ذلك على أن الاختلاف فيه لا يرجع إليه وإنما يرجع إلى ما عند الناس. ومن ثم لا بد أن تحكم آراء الناس بالكتاب، ولا يحكم الكتاب بآراء الناس.

- منهج صارم في التفسير:

وللوصول إلى فهم موحد لكتاب الله لا بد من التزام منهج صارم في التفسير يقوم على أمرين : الأمر الأول: مراعاة نظام الكلام الذي يشمل تسلسل المعاني وترابطها الوثيق، والتناسب بين السابق واللاحق في نطاق الآيات والسور، فتظهر بذلك وحدة القرآن الموضوعية، وتتضح قاعدته البيانية، ويبدو القرآن بذلك كلا موحدا، لا تفاوت في مبانيه، ولا اختلاف في معانيه. الأمر الثاني : اعتبار تفسير القرآن بالقرآن أصلا في بيان معاني الكلمات القرآنية، واعتبار أسلوب القرآن بالقرآن أصلا في بيان معاني الكلمات القرآنية، واعتبار أسلوب القرآن قاعدة حاكمة في اختيار المعاني وترجيح بعضها على بعض، وذلك لأن تفسير القرآن بالقرآن تفسير صاحب الكلام لكلامه، ولا يمكن أن يقدم عليه أي تفسير مهما كان. ومثل هذا المنهج الصارم لا يمكن الوصول فيه إلى

---

[27] - الأنعام : 159.
[28] - المائدة : 14.
[29] - النساء : 82.

نتائج قاطعة حاسمة إلا إذا أخذ مأخـذ الجـد في التطـبيق، وهو يتطلب تعمقا في الفهم، وتـدقيقا في النظـر، وصـبرا على التأمل الطويل، والتدبر الواعي. ولكن الثمـرة لـذلك كله فهم صحيح لكتاب الله، بعيـد عن التكلـف والتعسـف، وتصـحيح للأخطـاء المتوارثـة، ونظـرات جديـدة تـدفع بالمسلمين خطـوات واسـعة إلى الأمـام، وتكـون منطلقـا لنهضة إسلامية حقيقية، حيث تؤدي إلى توحيد الفهم الذي يجمع المسلمين على صـعيد واحـد وكلمـة سـواء، وبـذلك يكون القرآن، كما أراده اللـه أن يكـون حاكمـا بين النـاس فيمـا اختلفـوا فيـه، فلا يقـدمون بين يـدي آراءهم، ولا يحملونه مالا يحتمل، وإنما يستلهمون مراده، وينتهون إلى حيث ينتهي بهم.

وهكـذا الكلام الوجـيز في المنهج يحتـاج إلى شـرح وتوضـيح لا يتسـع لـه المجـال هنـا، وسـنكتفي في هـذه العجالة بضرب بعض الأمثلة الدالة عليه:

❶ قولـه تعـالى :] فويـل للمصـلين الـذين هم عن صلاتهم ساهون[:

❷ ذكر الخطابي في رسـالته عن إعجـاز القـرآن عن مالك بن دينار قال : جمعنا الحسن لعـرض المصـاحف أنـا وأبـا العاليـة الريـاحي ونصـر بن عاصـم الليـثي وعاصـما الجحدري فقال رجل : يا أبا العالية قوله تعالى في كتابه :] فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون[.

❸ما هذا السهو؟ قال: الـذي لا يـدري عن كم ينصـرف ، عن شفع أو عن وتر.

فقال الحسن: مه يا أيا العالية، ليس هذا بل الذين سهوا عن ميقاتهم حتى تفوتهم.

قال الحسن : ألا ترى قوله عز وجل :] عن صلاتهم[.

ويعلق على ذلك الخطابي بقوله : " وإنما أتي أبـو العاليـة في هذا حيث لم يفرق بين حرف "عن" و " في" فتنبه لـه الحسـن فقـال : ألا تـرى قولـه " عن صـلاتهم" يريـد أن السـهو الـذي هـو الغلـط في العـدد، إنمـا هـو يعـرض في الصـلاة بعـد ملابسـتها، فلـو كـان هـذا المـراد لقيـل: في

صـلاتهم سـاهون. فلمـا قـال " عن صـلاتهم" دل على أن المراد به الذهاب عن الوقت[30] !!!.

وهـذا الكلام الـذي يقولـه الحسـن إنمـا قالـه لأنـه لم يتنبه لسياق الآية " فويل للمصلين. الذين هم عن صـلاتهم ساهون: ذلك أن التوعد في الآية إنما هو " للمصلين." أي المتلبسين بالصلاة، وهو قد سهوا عن حقيقتها وخشـوعها، وبالتالي فلا تـرتب على مثـل هـذه الصـلاة آثارهـا العلميـة السـلوكية، بدلالـة قولـه : " الـذين هم يـراؤون ويمنعـون الماعون" فهذه الصلاة قصد بهـا المـراءاة، ومن ثم فليس فيهـا معـنى الإخلاص للـه، والخشـوع بين يديـه، ومن ثم فصاحبها يمنع الماعون، ولا يسعى إلى فعـل الخـير، وهـذا المنكـر من المـراءاة ومنـع المـاعون لم تحـل مثـل هـذه الصلاة دون وقوعه، على حين الصلاة الحقيقية تمنع فعــل ذلـــك:"وأقم الصـــلاة إن الصـــلاة تنهى عن الفحشـــاء والمنكر".

فإذا أضفنا إلى ذلك أن أول السـورة : " أرأيت الـذي يكذب بالدين. فذلك الذي يدع اليتيم. ولا يحض على طعام المسـكين." عرفنـا أن هـذه الأوصـاف إنمـا تنطبـق على المنافقين.

ثم إن هذه الصلاة الـتي لا تـؤثر في سـلوك صـاحبها، وجودهـا وعـدمها سـواء، ومن ثم وصـف اللـه الـذين لا يصلون بمثل ما وصف به الذين يصلون هذه الصلاة حينمـا قال عن أهل النار:

] ما سلككم في سقر، قـالوا لم نـك من المصـلين، ولم نك نطعم المسكين. وكنا نخوض مع الخائضـين، وكنـا نكذب بيوم الدين[[31] وإذا ما أردنا تأكيـدا أكـثر فإننـا نحتكم إلى أسلوب القرآن وبيان القرآن بالقرآن فماذا نجد:

قال الله تعالى :] إن الإنسان خلق هلوعا. إذا مسـه الشر جزوعا. وإذا مسه الخير منوعا. إلا المصلين . الـذين هم على صـلاتهم دائمـون[[32] .] والـذين هم على صـلاتهم

---

[30] - ثلاث رسائل في إعجاز القرآن : 32-33.

[31] - المدثر : 42-46.

[32] - المعارج 19-23.

يحـافظون[[33]ويقـول اللـه تعـالى :] قـد أفلح المؤمنـون. الذين هم في صلاتهم خاشعون[[34].
] والـذين هم على صـلاتهم يحـافظون[[35] ويقـول أيضـا : حـافظوا على الصـلوات والصـلاة الوسـطى. وقومـوا للـه قانتين[[36].

وبالنظر في الآيات السابقة وسياقاتها نرى ما يلي : - تكـرار الوصـف بالصـلاة في سـياق سـورة المعـارج وفي سياق سورة المؤمنون-.

وصف المصلون بسورة المعارج أنهم :]على صلاتهم دائمون[كما وصفوا بسورة المؤمنون بأنهم:]في صــلاتهم خاشعون[.

أما الوصف المكرر في السـورتين فقـد جـاء بصـيغة واحدة وهو] والذين هم على صلاتهم يحافظون[.

فلو وضعنا هـذه الآيـات على صـورة معادلـة رياضـية لرأينا ما يلي :

الذين هم على صلاتهم دائمون   والذين هم على صلاتهم يحافظون

الذين هم في صلاتهم خاشعون   والذين هم على صلاتهم يحافظـون

ولما كان الطرف الثاني للآيتين واحدا " يحافظون" كان لا بــد للطــرف الأول : "دائمــون – خاشــعون " أن يكــون متساويا، وهـذا يعـني أن المـراد بــ " دائمـون" أي دائمـوا الخشوع في صلاتهم.

أما قوله " يحـافظون " فـالمراد بـه المحافظـة على وقت الصلاة وعدم تضييعه.

وهكــذا نــرى أن القــرآن إذا أراد التعبــير عن " وقت الصلاة " جاء بلفظ المحافظة.

وإذا أراد التعبــير عن حقيقــة الصــلاة جــاء بلفــظ " الخشوع" أو " الدوام" أو ما شابه.

---

33 - المعارج : 24.
34 - المؤمنون : 1-2.
35 - المؤمنون : 9.
36 - البقرة : 238.

وهــذا ينطبــق على قولــه تعــالى :] حــافظوا على الصلوات والصـلاة الوسـطى[حيث يـراد بهـا الـوقت. أمـا الخشوع فقد عبر عنه بـ "القنوت" كمـا هـو تتمـة الآيـة :] وقوموا لله قانتين[.

❹وصف الإنسان في سـورة المعـارج بقولـه :]. وإذا مسه الخير منوعـا. إلا المصـلين. الـذين هم على صـلاتهم دائمــون. والــذين في أمــوالهم حــق معلــوم للســائل والمحروم. والذين يصدقون بيوم الدين[.

❺كمــا وصــف المؤمنــون الخاشــعون في ســورة المؤمنـون بقولـه :] والـذين هم للزكـاة فـاعلون[. وهـذه الصفات هي ضد الصفات الواردة في سـورة المـاعون :] أرأيت الذي يكـذب بالـدين ، فـذلك الـذي يـدع اليـتيم، ولا يحض على طعام المسـكين. فويـل للمصـلين . الـذين هم عن صلاتهم ساهون الذين هم يراؤون. ويمنعون الماعون[. فانظر إلى هذا التوافق العجيب. وصدق الله : " ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا" .

المثال الثاني قولـه تعـالى :] ويـوم ينـاديهم فيقـول أين شـركائي الـذين كنتم تزعمـون، ونزعنـا من كـل أمـة شهيدا فقلنـا هـاتوا برهـانكم فعلمـوا أن الحـق للـه وضـل عنهم ما كانوا يفترون [[37] .

يقول الطبري في تفسير هاتين الآيتين:

ويوم ينادي ربك يـا محمـد هـؤلاء المشـركين فيقـول لهم: " أين هم شركائي الذين كنتم تزعمون " أيهـا القـوم في الدنيا أنهم شركائي؟

وقوله :] ونزعنا من كل أمة شـهيدا [: وأحضـرنا من كل جماعة شهيدها وهو نبيها الذي يشهد عليها بمـا أجابتـه أمته فيما أتاهم به عن الله من الرسالة ..

وقوله :] فقلنا هاتوا برهانكم[يقول : فقلنا لأمة كــل نبي منهم التي ردت نصيحته وكذبت بما جاءها به من عنـد ربهم، إذ شهد نبيها عليها بإبلاغه إياهـا رسـالة اللـه "هـاتوا برهانكم" يقول فقـال لهم : هـاتوا حجتكم على إشـراككم

---

[37] - القصص : 74-75.

بالله ما كنتم تشركون مع إعذار الله إليكم بالرسل وإقامته عليكم بالحجج.."
وقوله :] فعلموا أن الحق لله [يقول : فعلموا حينئذ أن الحجة البالغة لله عليهم، وأن الحق لله والصدق خبره، فأيقنوا بعذاب من الله لهم دائم.
] وضل عنهم ما كانوا يفترون[يقول : واضمحل فذهب الذي كانوا يشركون بالله في الدنيا، وما كانوا يتخرصون ويكذبون.[38].
هذا ما قاله الطبري في هذه الآية، وبمثل هذا القول أخذ معظم المفسرين.
غير أن الفراهي الهندي يقول في مقدمة كتابه مفردات القرآن : " . ثم سوء فهم الكلمة ليس بأمر هين فإنه يتجاوز إلى إساءة فهم الكلام، وكل ما يدل عليه من العلوم والحكم، فإن أجزاء الكلام يبين بعضها بعضا للزوم التوافق بينها. مثلا كلمة " النزع" في -سورة القصص- تبين معنى " الشهيد" – هناك – فسوء فهمها صرف عن معنى غيرها.[39].
يريد بذلك الذين فسروا " النزع" بالإحضار وما شابهه – كما ذهب إلى ذلك الطبري وغيره-، والمعروف أن أصل النزع: جذب الأشياء من مقارها بقوة"[40].
ومثل هذا الخطأ في معنى " النزع" جعل من الممكن تفسير " الشهيد" بـ " النبي" وبذلك اضطر المفسرون إلى التكلف في معنى الآية، نتيجة الخطأ في معنى " النزع" و معنى " الشهيد".
ولو أنهم تمسكوا بأصل المعنى " جذب الأشياء من مقارها بقوة " لعرفوا أن هذا لا يتناسب مع مقام " الشهيد" – الذي هو النبي – وأنه لا بد للشهيد من معنى آخر.
وقد بين الفراهي معنى الشهيد في كتابه " مفردات القرآن" فقال :

---

[38] جامع البيان : 11/104-105 ، طبعة دار الفكر .
[39] - مفردات القرآن : 4.
[40] - عمدة الحفاظ : السمين الحلبي 4/186.

" الشهيد" : الذي يشهد ويحضر . ويحمل على وجوه:
1- من يشـهد المشـاهد العظيمـة من القـوم ويتكلم عن القوم، فهو لسان القوم، فما قال كـان ذلـك قـول القـوم، فهو رئيسهم وهم يذعنون لما قال .
وهذا كما قال تعالى :] ونزعنا من كـل أمـة شـهيدا فقلنـا هاتوا برهانكم فعلموا أن الحق للـه وضـل عنهم مـا كـانوا يفترون".
وقـد فسـر الفـراهي في مذكراتـه الـتي وضعها بين يـدي تفسيره " الشهيد" في الآية بأنه إمامهم في الكفر .
ويؤيد هذا التفسير ما جاء في سورة مريم في قوله تعالى :] ثم لننزعن من كل شيعة أيهم أشد على الـرحمن عتيا[[41].
حيث استعمل نفس فعل " النزع" واستعمل " الشيعة" بدل الأمة، وبين معنى الشهيد بأنـه أشـدهم على الرحمن عتيا".
وبناء على هذا يسـتقيم معـني الآيـة: ونزعنـا من كـل أمة شهيدا – إمامهم في الكفـر وأشـدهم عتـوا – فقلنـا – لهـؤلاء الأئمـة العتـاة- : هـاتوا برهـانكم – على مـا كنتم تزعمـون لي من الشـركاء – فعلمـوا أن الحـق للـه وضـل عنهم ما كانوا يفترون – من الشركاء -.
ويؤيـد هـذا المعـنى قولـه تعـالى :] ويـوم ينـاديهم أين شركائي قال قالوا آذناك ما منا من شهيد. وضل عنهم مـا كانوا يدعون من قبل وظنوا ما لهم من محيص[[42].
ولو أننـا تتبعنـا الآيـات الـتي تنتهي بقولـه تعـالى :] وضـل عنهم ما كانوا يفترون[لرأيناهـا تؤيـد هـذا المعـنى، ممـا لا يدع مجالا للشك في صحة هذا التفسير.
أمـا التفسـير الـذي ذهب إليـه معظم المفسـرين، فقـد اضطروا إليه اضطرارا، حيث ظنوا أن "الشهيد" في الآيـة هو كالشهيد في قوله تعالى :] فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا[[43]. ولما كـان قولـه :]

---

[41] - مريم : 69.
[42] - فصلت : 48.
[43] - النساء : 41.

فقلنا هاتوا برهانكم[لا يتناسب مع مقام الشهيد الـذي هـو النبي، جعلوا الخطاب للأمم بدلا من الأنبياء، غـير أن الأمم فيهـا المـؤمن والكـافر، وحـتى يصـح الخطـاب لا بـد من تخصيصه بالكفار، وكلها تكلفات وتجوزات.
ولو أنهم أخـذوا " الـنزع" على أصـل معنـاه لعلمـوا أنـه لا يتناسب مع مقام الأنبياء ومن ثم بحثوا عن المعنى الآخـر، والذي تكـرر في عـدد من الآيـات ومنهـا قولـه تعـالى في سورة البقرة :] وادعـوا شـهداءكم من دون اللـه إن كنتم صادقين[[44].
ونكتفي بهذين المثالين على ما أردنا شرحه وتوضـيحه لأن المقام لا يسمح بأكثر من هذا.
ومن أراد أمثلة أكثر فبإمكانه أن يرجع إلى ما كتبناه حـول مفهوم " إرادة الله" و"القضاء والقدر" في افتتاحية العـدد الرابـع عشـر من مجلـة الشـريعة والدراسـات الإسـلامية الكويتية الصادرة في شهر 8/89 ومـا كتبنـاه في افتتاحيـة العدد الخامس عشر من نفس المجلـة عن " مشـيئة اللـه في الهداية والضلال" وما كتبنـاه في العـدد السـابع عشـر عن التحقيق في معنى " الفقير" و " المسكين".
وغــير ذلــك من الدراســات في عــدد من المفهومــات والمصطلحات كـ" الخلافة في الأرض".
و " فطرة الله الـتي فطـر النـاس عليهـا " و " الـذين في قلوبهم مرض" و " الأمة في دلالتها العربية والقرآنية" و " تأويلات ثلاث آيات متشابهات – آيات الصـابئين- و " تأويـل آيــة الزخــرف" :] قــل إن كـان للــرحمن ولــد فأنــا أول العابدين[و تأويل آية النسـاء:] لكن الراسـخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليه وما أنزل من قبلـك والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة.[.
ومن خلال هذه التجربة أرى أن هـذه المنهجيـة تحـل كثيرا من المشكلات، وتؤصـل لفهم موحـد ينفي التخاصـم والتشاكس، ويؤدي إلى الائتلاف والتعـاون، وهي على كـل حال بدايات تحتاج إلى إنضاج ووجهة نظر جديرة بالتأمــل

---

[44] - البقرة : 23

والمناقشة، ولعلها تلقى قبولا وترحيبـا، ودعمـا وإثـراء من قبل الأخوة العلماء، والمحققين الفقهاء.
وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

نظرية الترتيل في القرآن المجيد

دراسة في المفهوم والمستويات

أ.د. أحمد عبادي/جامعة القاضي عياض مراكش

مدخل مفهومي:
قـال صـاحب الصـحاح:" ثَغْـرٌ رَتْـلٌ: إذا كـان مسـتوي النبـات."[45] وقـال المجـد الفيروزآبـادي:" والرَّتْـلُ: اتسـاق الشيء وانتظامه على استقامة, يقال: رجل رَتْلُ الأسنان: حسـن تناسـقها. والرَّتْـلُ: الطيب من كـل شـيء. ورَتَّلَ الكلامَ ترتيلاً: أحسنَ تأليفَه."[46] وقال ابن منظور:" الرتـل: حسن تناسـق الشـيء. وثغـر رتـل ورتِـل: حسـن التنضـيد مسـتوي النبـات. ورتـل الكلام: أحسـن تأليفـه. والـرُّتَيْلاءُ: جنس من الهـوام."[47] وقـال محمـد الطـاهر بن عاشـور:"

---

[45] - الصحاح, 4/1704
[46] - بصائر ذوي التميز في لطائف الكتاب العزيز, 3/35.
[47] - لسان العرب, 11/265.

ورتلناه ترتيلا: أي أنزلناه منجما ورتلنـاه. والترتيـل يوصـف بـه الكلام إذا كـان حسـن التـأليف بيّن الدلالـة. واتفقت أقوال أئمة اللغة على أن هذا الترتيل مأخوذة من قـولهم: ثغر مرتل ورتل."[48]

غير أننا نجد كثيرا من المفسرين- رغم اتفاق أقـوال أئمـة اللغة, حسب تعبـير الطـاهر بن عاشـور, على أن الترتيـل مـأخوذ من النضـد ومن الاتسـاق ومن التنسـيق ومن الانتظام على استقامة- قد قصروه على الجـانب الصـوتي منه؛" إرسال الكلمة من الفم بسهولة واستقامة."[49] ولمـا كان الأمر في القرآن ينصـرف بالأصـل إلى تـدبر المعـاني وتفهمهـا, إذ هـو كتـاب هدايـة, فـإن قصـر المعـنى على الجـانب الصـوتي من القـرآن- رغم الحشـد الحاشـد من الآثار, كآثـار ابن عبـاس ومجاهـد وقتـادة, ومن كلام أئمـة اللغة, كابن الأعـرابي والجـوهري وابن منظـور وابن عبـاد وغـيرهم ممـا ينص جميعـه على تفهم المعـاني وتفهيمهـا, أقول: رغم كل تلك الآثار والأقوال وإهمال البعـد البنـائي/ النضدي الاتساقي الذي تتضمنه هذه الكلمـة: الأمـر الـذي يعد تحكما بغـير برهـان, خصوصـا إذا وجـدنا في تعريفـات بعض القراء كـأبي البقـاء الكفـوي للترتيـل النص الصـريح على أنه للتدبر والاستنباط. قـال أبـو البقـاء في الكليـات: "وأما الترتيل، فإنه للتدبر والتفكر والاستنباط."[50]

وإذا علمنـا أن القـرآن المجيـد لم يتنـزل وفـق تـرتيب العرضة الأخـيرة, وإنمـا نـزل وفـق خطـة بيانيـة- كمـا هـو متضح في جميع كتب أسباب النزول, إذ كانت تـنزل الآيـة في بيان آية أخرى سبقتها تنزلا وهي ليست تاليـة لهـا في الترتيب الذي كانت وفقه في بيت العـزة, وهـو نفسـه في العرضـة الأخـيرة, كمـا كـانت تـنزل مفرقـة بـالنظر إلى ترتيبهـا- في بيت العـزة ابتـداء, وفي المصـحف حسـب العرضة الأخـيرة انتهـاء- لمعالجـة إشـكالات الواقـع الـذي تعيشـه الجماعـة المسـلمة, وقـد نقـل محمـد الطـاهر بن

---

[48] - التحرير والتنوير, 19/20.
[49] - مفردات ألفاظ القرآن, الراغب الأصفهاني, 341.
[50] - الكليات, 2/76.

عاشور عن الجـد الـوزير قولـه:" إن القـرآن لـو لم يـنزل منجما على حسب الحوادث لمـا ظهـر في كثـير من آياتـه مطابقتها لمقتضـى الحـال, ومناسـبتها للمقـام, وذلـك من تمـام إ إعجازهـا."[51] يتـبين إذن أن التنسـيق بين الآيـات, وإن تفرقت مـنزلا في القـرآن المجيـد, هـو أظهـر معـاني الترتيـل, وأن الجـانب الصـوتي ملابس لـه ملابسـة الفـرع للأصل.

إن البيانــات الــتي ينبغي أن تطلب من القــرآن المجيــد بمقتضــى الترتيــل هي بيانــات هدايــة تســتجيب لحاجــة الإنسان فردا وجماعة, إذ القرآن في أول تنزله نزل مـرتلا مستجيبا لحاجـات الجماعـة المسـلمة التأسيسـية معرفيـا وتربويا وسياسـيا وتعبـديا واجتماعيـا وتشـريعيا واقتصـاديا وأخلاقيا, محليا ودوليا, ماديا ووجدانيا. واستمر الترتيل إلى حين انبثقت خـير أمـة أخـرجت للنـاس: كنتم خـير أمـة أخـرجت للنـاس تـأمرون بـالمعروف وتنهـون عن المنكـر وتؤمنون بالله [آل عمران, 110] كـل ذلـك عن طريـق منهج تم إرساؤه بالترتيل فاتضحت معالمه إلى الحد الـذي جاز معه – واقعيا - الأمر بالعــمل به: ورتل القرآن ترتيلا [المزمل, 3] أمـرا موجهـا إلى رسـول اللـه صـلى اللـه عليه وسلموإلى كل إنسان مـؤمن بهـذا القـرآن بعـده في كـل زمـان وفي كـل مكـان. وفعـل الترتيـل الـذي يخلـط شغاف قلب الفرد وينداح من خلاله إلى كل نواحي واقعـه هــو المكمــل والممكن من وظيفــة يتلــو عليهم آياتــه ويــزكيهم ويعلمهم الكتـاب والحكمة [آل عمـران, 164] إن آيات سورة الفرقان قد جاءت واضـحة بهـذا الصـدد إذ قال تعالى: وقال الـذين كفـروا لـولا نـزل عليـه القـرآن جملـة واحــدة كـذلك لنثبت بـه فـؤادك ورتلنـاه تـرتيلا ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسـيرا [الفرقـان, 32-33] قـال ابن جريـر الطـبري في معـرض كلامـه عن هذه الآيات:

" يقول تعالى ذكره, ولا يأتيك يا محمد هـؤلاء المشـركون بمثل يضربونه إلا جئناك من الحق بما نبطل بـه مـا جـاءوا

---

[51] - التحرير والتنوير, 19/20.

بــه وأحســن منــه تفســيرا... وعــنى بقوله)وأحســن تفسيرا(وأحسن مما جاءوا به من المثـل بيانـا وتفصـيلا... حدثني محمد بن سعد قال ثنى أبي قال ثنى عن أبيــه عن ابن عباس قوله: وأحسن تفسـيرا يقـول: أحسـن تفصـيلا. حدثنا القاسم قال ثنا الحسـين قـال ثـني الحجـاج عن ابن جـريج عن مجاهـد: وأحسـن تفسـيرا قـال: بيانـا"[52]وأورد القرطبي عن الضحاك في قوله تعالى: وأحسن تفسـيرا " قـال: تفصـيلا. قـال القرطـبي: والمعـنى: أحسـن من مثلهم تفصيلا, فحـذف لعلم السـامع."[53] وقـال ابن عطيـة في معرض حديثه عن هذه الآيـة:" إلا جـاء القـرآن بـالحق في ذلـك بالجليـة, ثم هـو أحسـن تفسـيرا, وأفصـح بيانـا وتفصيلا."[54]

وهذا هو الموطن الوحيد من كتاب اللـه تعـالى الـذي جـاء فيه ذكر مادة [فسر]. والتفسير – الـذي هـو من الفسـر, أي: البيان والإيضاح [55]- في القرآن, كما يتضـح من أقـوال الأئمة سالفة الذكر, فعل بياني إيضاحي يتوجه من القرآن إلى الواقـع, إذ لمـا كـان المثـل يـراد بـه " إبـراز خبيـات المعاني ورفع الأستار عن الحقائق حتى تريك المتخيل في صورة المحقق, والمتوهم في معرض المـتيقن, والغـائب كأنــه مشـاهد,"[56] فقـد بين رب العـزة في هـذه الآيـة أن القــرآن المجيــد أوفــق في تحقيــق هــذه المقاصــد من محاولات الناس الحائرة, مخلصـة كـانت أو مغرضـة. فـإذا كانت الأمثـال تضـرب لإلقـاء الأضـواء على مـا يستشـكله الإنسـان, وهي نشـاط فكـري و" مـنزل جليـل بـديع من منـازل البلغـاء لا يبلـغ إلى محاسـنه غـير خاصـتهم," فـإن القــرآن المجيــد يحــق تلــك الأمثــال, يفتقهــا, يــدمغها ويتجاوزها, ويفسـر الإشـكالات الـتي تعـرض للإنسـان في واقعه تفسيرا أسفر, ويلقي عليها أضواء أكشف, فـالقرآن

---

[52] - جامع البيان في تفسير القرآن, 19/9.
[53] - الجامع لأحكام القرآن, 13/21-22.
[54] - المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز, 12/23.
[55] - انظر: مفردات ألفاظ القرآن, 663.
[56] - الزمخشري, الكشاف عن الحقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل, 1/72.

هو الذي يفسر الحياة والأحياء, وهو النور المضيء الهادي, ومتى ما عمد الإنسان إلى النور ينيره وإلى الضوء يضيئه وإلى المفسر يفسره فقد قلب المنهج: قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم [المائدة, 17-18].

إن الترتيل هو الذي يطلق قدرات القرآن التفسيرية للحياة والأحياء, للإنسان وواقع الإنسان وما يموج ويضطرب فيه.. ولذلك قرن الأمر بالترتيل في سورة المزمل بالسبح الطويل الذي في النهار, والذي يكون في دنيا الناس مع الناس من اجل رفع الآيات والبصائر عبر الناس في واقع الناس.[57] فقال تعالى: يا أيها المزمل قم الليل قليلا نصفه أو انقص منه قليلا أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا إن ناشئة الليل هي أشد وطأ وأقوم قيلا إن لك ف النهار سبحا طويلا (المزمل:1-5)[58]

إن تفسير القرآن للحياة والأحياء, للإنسان وواقعه, لا يمكن أن يتم إلا بالنظر إلى هذا القرآن وفيه, بعضه في أثر بعض, بناء على ما يُستشكل ويَعرض في أتون الحياة, حيث تستحيل الآيات والبصائر المستدعاة بمنهج الترتيل هادية إلى الحق, ممكنة الإنسان فردا وجماعة من تحديد موقعه, ومن إبصار وجهته, بالاهتداء إلى قبلته. وقد تنبه إلى هذه القضية بالمعية محمد باقر الصدر رحمه الله في كتابه " المدرسة القرآنية" فقال:

"المفسر التوحيدي والموضوعي ... يجلس بين يدي القرآن الكريم, لا يجلس ساكتا ليستمع فقط, بل يجلس محاورا. يجلس سائلا ومستفهما ومتدبرا فيبدأ مع النص

---

57 - قال القرطبي, في قوله تعالى) سبحا طويلا(:" تصرفا في حوائجك وإقبالا وإدبارا وذهابا ومجيئا. والسبح: الجري والدوران, ومنه السابح في الماء لتقلبه بيديه ورجليه. وفرس سابح: شديد الجري, قال امرؤ القيس:
مِسَحٍّ إذا ما السابحات على الونى   أثرن الغبار بالكديد المُركّل
[القرطبي, الجامع لأحكام القرآن, 19/29]

58 - والمقصود بالقول الثقيل في الآية " ثقيل محمله, ثقيل العمل بحدوده وفرائضه." [الطبري, 29-80]

القرآني حوارا حول هذه الموضوع, وهو يستهدف من ذلك أن يكتشف موقف القرآن الكريم من الموضوع المطروح, والنظريـة الـتي بإمكانـه أن يسـتلهمها من النص من خلال مقارنة هذا النص بما استوعبه الباحث عن هـذا الموضـوع من أفكار واتجاهات."[59]

فكما فسر القرآن الواقع الذي عاشته الجماعـة المسـلمة الأولى, وهـداها فيـه للـتي هي أقـوم[60] يمكنـه أن يفسـر الواقـع الـذي تحيـاه أيـة جماعـة مسـلمة أخـرى شـريطة استعمال المنهج السليم , والـذي نـرى- بنـاء على كـل مـا مر- أنه الترتيل.

مستويات الترتيل

يمكننـــا أن نتـــبين للترتيـــل في كتـــاب اللـــه تعـــالى ثلاثـــة مستويات:

أولا: المستوى المفاهيمي

إن كل فكر منهاجي وهو ينشئ نسيجه الخاص بـه يضـطر إلى استخدام اللغـة المتداولـة, والـتي يسـتعملها المحيـط للتعبير عن دلالات معينة في سياق البحث, إلا أنهــا دلالات تكــون – قبــل أن تحــط في ســاح هــذا الفكــر- مضــمخة بالمضامين المعرفية الناتجـة عن الفكـر الـذي نشـأت في نطاقه, وكذلك الألفـاظ والمفـردات اللغويـة, فإنهـا تكـون ذات ارتباطـــات بالســـياقات الاجتماعيـــة والتاريخيـــة والمعاشية عامة, التي شـهدت تشـكلها. فـدلالات الألفـاظ يتصل بها تصور ذهني محدد للأشياء المشار إليها, وليسـت مجرد علامات محايدة على هـذه الأشـياء. ودلالات ألفـاظ القرآن الكريم لا تشذ عن هذا الأصل, إذ هنـاك فـارق بين الاستخدام الإلهي للغة والاستخدام البشـري للغـة نفسـها. فالقرآن المجيد كلام الله العليم الخبير الذي " أحاط بكـل شيء علما, وأحاط بالكلام كله علما, , فإذا ترتبت اللفظة

---

[59] - محمد باقر الصدر, المدرسة القرآنية, 19-20.

[60] - ﴿ إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم﴾

من القـرآن علم بإحاطتـه أي لفظـة تصـلح أن تلي الأولى وتبين المعنى بعد المعنى." [61]

فاللفظة المختارة من لدنه سـبحانه تضـرب بجـذورها في الإحاطة, نظرا للنظم الذي أخضـعها لـه سـبحانه, فالعمـد إليهـا لتبيانهـا دون مراعـاة هـذا بحسـب الأفـق المعـرفي للإنسان القاصر يظلمها, إذ" البشر معهم الجهل والنسيان والـــذهول؛ ومعلـــوم ضـــرورة أن البشـــر لم يكن قـــط محيطا."[62]

إن الاستخدام الإلهي للمفردة اللغوية يرتقي بـــدلالاتها إلى مستوى المصطلح المحكم الدقيق, خلافا للكسـب البلاغي البشري عامة. إن الفرق بين كلام الله وكلام البشـر أكـبر من الفرق بين الإنسان والتماثيل الطينيـة. فكمـا أن إرادة الله ومشيئته حين توجهتا إلى الطين صيرتاه إنسانا ناطقـا مريدا فاعلا, فكذلك حين توجهتا إلى الكلام صـيرتاه قرآنـا مرتلا منيرا هاديـا. إن اسـتخدام القـرآن للمفـردة اللغويـة يعطيها الطابع المرجعي الذي يحكم دلالاتها حيثمـا وجـدت في القـرآن, فـإذا تم التعـرف على دلالـة مفـردة لغويـة قرآنية بالآليات المنهجية المناسبة, وفي مقـدمتها التعـديل التعاضدي المقارن بين كل الاستخدامات في القرآن, فإنه يتم الانفصال بالدلالة الحاكمة التي تفهم اللفظـة بحسـبها في القرآن كله.

فمثلا, حين ننظر إلى مادة: (هبط) في القرآن بهذا المنهج الذي أشرنا إليـه, فإننـا سـنفهم بـأن الدلالـة هي السـلب, بأنواع مختلفة لمواصفات حالـة الـذي يـؤدي إلى الانحـدار إلى حالــة أدنى. إذ هي على المســتوى اللغــوي الصــرف تدور على الهبوط والانحطـاط, قـال الزبيـدي:" هبطـه أي نقصه وحطه. وانهبط: انحـط. وهـو مطـاوع أهبطـه, كمـا في الصـحاح. ويجـوز أن يكـون مطـاوع هبطـه , كمـا في المحكم. والهبـوط: الموضـع الـذي يهبطـك من أعلى إلى أســفل. والهبــط: النقصــان, تقــول: هبطت إبلى وغنمي تهبط هبوطا أي نقصت. وهبط فلان إذا اتضـع, وهبــط من

---

61 - ابن عطية. المحرر الوجيز, 1/38.

62 - المصدر السابق,1/39.

منزلته: سقط."[63]ولذلك قال الله هز وجل لبني إسرائيل في مقام النزول والانحدار من المنزلة التي كانوا عليها: اهبطو مصرا [البقرة, 60] أما حين أراد رفعهم فإنه قال : وإذا قال موسى لقومه ياقوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين [المائدة, 23]

أما بالنسبة للاستخدام القرآني, فإن استعمال لفظة اهبطوا بالنسبة لآدم في كل من قوله تعالى: وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو [البقرة, 35] وفي قوله تعالى: قلنا اهبطوا جميعا [البقرة, 37] وقوله تعالى: قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو [الأعراف, 23] يفيد السلب لمواصفات حالة مما يؤدي إلى الانحدار إلى أخرى أدنى منها. واستخدمت اللفظة بالدلالة نفسها بالنسبة لإبليس في قوله تعالى: قال اهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج إنك من الصاغرين(الأعراف: 12) وكذلك حين تستخدم بالنسبة لبني إسرائيل في قوله تعالى: وإذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها قال أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير اهبطوا مصرا فإن لكم ما سألتم وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباؤوا بغضب من الله [البقرة, 60] فالهبوط سلب لمحتوى إيجابي كان في كينونة الهابط (آدم, إبليس, بنو إسرائيل) إلا أن يغير القرآن نفسه مسار السلب في حالة الهبوط ويوجهه بقيد إيجابي, ففي حالة نوح قيد الهبوط من السفينة حيث الرعاية الإلهية المباشرة[64] بالسلام والبركات, وذلك في قوله تعالى: قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك [هود, 48] وفي حالة الحجارة قيد الهبوط من حالة التماسك إلى الانهدام بخشية الله: وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وإن منها لما يشقق

[63] - تاج العروس, 10/452-453.

[64] - واصنع الفلك بأعيننا ووحينا [هود, 37] وحملناه على ذات ألواح ودسر تجري بأعيننا جزاء لمن كان كفر [القمر, 13-14]

فيخرج منه الماء وإن منها لما يهبط من خشية الله [البقرة, 73]
وهكذا, كل دلالات ألفاظ القرآن تحمل معنى معرفيا واحدا" فلا تتغير معاني المفردات تبعا لتغير السياق, وإنما يضبط السياق – وهنا معجزة المعرفية القرآنية- بدلالة المفردة نفسها"[65] . وعليه فإن دلالات اللفظ القرآني تسقط على كافة توظيفاته واستخداماته في القرآن. فالإعجاز ليس بلاغيا فقط, إذ قصره على هذا الجانب انتحاء به منحى التقنين, والتقنين لا يصدر إلا عن إحاطة, والإحاطة في حق الكتاب مستحيلة, إذ من قنن عارض[66] وهذا لا يجوز في حق القرآن المجيد: قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا [الإسراء, 88] إن ألفاظ القرآن لكريم حين لا ترصد مدلولاتها (حركتها) داخل القرآن نفسه بمنهج الترتيل ليوقف على حقيقتها ينفسح المجال- على مصراعيه- للتأويلات المضطربة, وذلك أن تحديد معاني الألفاظ القرآنية من خارج القرآن يفرض عليها مدلولات ليست مرادة- بالإطلاق- وهو ما تنبه له ابن القيم رحمه الله بشفافية ودقة أثناء مناقشته للإمام السهيلي رحمه الله حول مدلول لفظ التكليم, فرتل رحمه الله ليخرج بالمدلول القرآني, قال:
" احتج بعض أهل السنة على القائلين من المعتزلة بأن تكليم الله لموسى مجاز بقوله: وكلم الله موسى تكليما فأكد الفعل بالمصدر, ولا يصح المجاز مع التوكيد. قال السهيلي: فذاكرت بها شيخنا أبا الحسن, فقال: هذا حسن, لولا أن سيبويه أجاز في مثل هذا أن يكون مفعولا مطلقا, وإن لم يكن منعوتا في اللفظ, فيحتمل على هذا أن يرد تكليما ما فلا يكون في الآية حجة قاطعة, والحجاج عليهم كثيرة. قلت: وهذا ليس بشيء. والآية صريحة في

---

[65] - انظر الفصل الهام حول توضيح دلالات المصطلحات, الذي كتبه د. أبو القاسم حاج حمد في كتابه: منهجية القرآن المعرفية, الصادر في طبعة محدودة التداول ضمن مطبوعات المعهد العالمي للفكر الإسلامي, 1411-1991.

[66] - بالمفهوم الشعري للمعارضة.

أن المراد بها تكليم أخص من الإيحاء, فإنه ذكر أنه أوحى إلى نوح والنبيين من بعده, وهذا الوحي هو التكليم العام المشترك. ثم خص موسى باسم خاص وفعل خاص, وهو: (كلم تكليما) ورفع توهم إرادة التكليم العام عن الفعل بتأكيده بالمصدر, وهذا يدل على اختصاص موسى بهذا التكليم, ولو كان المراد تكليما ما, لكان مساويا لما تقدم من الوحي أو دونه, وهو باطل. وأيضا, فإن التأكيد في مثل هذا السياق صريح في التعظيم, وتثبيت حقيقة الكلام والتكليم فعلا ومصدرا, ووصفه بما يشعر بالتقليل مضاد للسياق, فتأمله. وأيضا, فإن الله سبحانه قال لموسى: إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي [الأعراف, 144]

فلو كان التكليم الذي حصل له تكليما ما, كان مشاركا لسائر الأنبياء فيه, فلم يكن لتخصيصه بالكلام معنى. وأيضا, فإن وصف المصدر هاهنا مؤذن بقلته, وأن نوعا من أنواع التكليم حصل له, وهذا محال هاهنا, فإن الإلهام تكليم ما, ولهذا سماه الله تعالى وحيا, والوحي تكليم ما, فقال: وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه[القصص: 6]. وإذ أوحيت إلى الحواريين[المائدة :113] ونظائره. وقال عبادة بن الصامت: رؤيا المؤمن كلام يكلم به الرب عبده في منامه. فكل هذه الأنواع تسمى تكليما ما, وقد خص الله سبحانه موسى واصطفاه على البشر بكلامه له. وأيضا, فإن الله سبحانه حين ذكر موسى ذكر تكليمه له باسم التكليم الخاص, دون الاسم العام, كقوله: ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرني أنظر إليك قال لن تراني [الأعراف, 143] بل ذكر تكليمه له بأخص من ذلك وهو تكليم خاص, كقوله: وناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجيا [مريم, 52] فناداه وناجاه, والنداء والنجاء أخص من التكليم, لأنه تكليم خاص, فالنداء تكليم من البعد, يسمعه المنادى, والنجاء تكليم من القرب. وأيضا فإنه اجتمع في هذه الآية ما يمتنع معه حملها على ما ذكره, وهو أنه ذكر الوحي المشترك ثم ذكر عموم الأنبياء بعد محمد ونوح ثم ذكر موسى بعينه بعد ذكر

النبيين عموما, ثم ذكر خصوص تكليمه ثم أكده بالمصدر[67] وكل من له أدنى ذوق في الألفـاظ ودلالاتهـا على معانيهـا يجزم بأن هذا السياق يقتضي تخصـيص موسـى بتكليم لم يحصل لغيره, وأنه ليس تكليما ما. فما ذكـره أبـو الحسـن غير حسن بل باطل قطعا."[68]

إن القرآن يتعالى عن تقـنين المعرفـة بـه, ووضـع قـوالب وقواعد لفهمه من خارجـه, وإن بـدا أن هـذا الخـارج هـو المحيط اللغوي" المشترك" , إذ لغة القرآن أسمى وأكـبر من قواعد اللغـة, ناهيـك عن ضـوابط المنـاهج المعرفيـة البشرية. فاللغة العربيـة وقواعـدها بـإزاء القـرآن المجيـد ولغته, لا تعدو كونها تحديدات نسبية إيجابية, لا غرو تقرب من القـرآن, ولكن لا تقننـه,لأن القـرآن العظيم مطلـق, والمطلـق لا يقنن من خارجـه. فلا يصـح أن يقـال عن القرآن (نيابة عنه), فالقرآن يقول عن كل شـيء -بمـا في ذلك اللغة- وعلى اللغة التفهم بالرد إليه وليس إلى ذاتهـا, على ما يسوء وينوء. إذ تحديـد معـاني ألفـاظ القـرآن من خارجه دون الرد إليـه عن طريـق الترتيـل, ثم فـرض تلـك التحديدات عليه حجب للقـرآن وليس ببيـان لـه. وذلـك أن الألفـاظ في القـرآن مترابطـة ترابطـا عضـويا بعلم اللـه وإحاطته, ترابطا يجعلها تنـد عن الزمـان والمكـان فتصـبح غير نهائيـة المعـاني الـتي يمكن أن تنـدهق منهـا. فألفـاظ القـرآن رغم عربيتهـا قرآنـا عربيـا غـير ذي عـوج ورغم كون اللغة العربية درجا أساسـا لفهمهـا, لا تكفي العربيـة- وحدها- لتحديد معانهيها. فاللغة القرآنيـة مندمجـة انـدماجا كليا بالرؤية الشمولية للحياة والأحيـاء, وللمصـدر والمـآل, التي يستدرجها بين آياته. إن القرآن المجيد, بما أنـه وحي

---

[67] - يقصد قوله تعالى: إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبورا ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليما [النساء , 162-163]

[68] - ابن القيم, بدائع الفوائد, 2/87-80. ولابن القيم كما لشيخه ابن تيمية رحمهما الله جولات مشرقة في هذا المستوى من مستويات الترتيل, كما في المستويين الآيتين.

أوحي به من عند الله, أكبر من الواقـع العيـني المشـخص الذي يتنزل عليه. فلا يكون – بالتبع- فهمه إلا في ضوء مـا تكرم الموحي به سبحانه بإيداعه فيه من ضـوابط فهمـه, ومـداخل المعرفـة بـه. ومن هنـا, ضـرورة الترتيـل على المســتوى اللفظي لتحقيــق دلالات الألفــاظ, في ضــوء الاستبعاد الكلي لاحتمال وجود ترادف في القرآن بالمعنى الشـائع للـترادف. وقـد كـان من أوائـل من تفطن لهـذه الحقيقة الراغب الأصفهاني رحمه الله حين قـال: " فـأول ما يحتاج لأن يشتغل به من علوم القرآن العلوم اللفظيـة. ومن العلوم اللفظيـة تحقيـق الألفـاظ المفـردة. فتحصـيل معاني مفردات ألفاظ القرآن في كونه من أوائل المعاون لمن يريد أن يـدرك معانيـه, كتحصـيل اللبِن في كونـه من أول المعــاون في بنــاء من يريــد أن يبنيــه... فلا بــد من تحقيق الألفاظ المترادفة على المعـنى الواحـد, ومـا بينهـا من الفروق الغامضـة, فبـذلك يعـرف اختصـاص كـل خـبر بلفظ من الألفاظ المترادفـة دون غـيره من أخواتـه, نحـو ذكر القلب مـرة, والفـؤاد مـرة, والصـدر مـرة, ونحـو ذكره في عقب قصة: ﴿ إن في ذلك لآيـات لقـوم يوقنـون ﴾[الروم,37] وفي أخرى: ﴿ لقوم يتفكرون ﴾ [يونس, 24] وفي أخرى: ﴿ لقوم يعلمون﴾ [البقرة, 230] وفي أخـرى: ﴿ لقــوم يفقهــون﴾ [الأنعــام, 98] وفي أخــرى: ﴿ لأولي الأبصـار﴾ [آل عمـران, 13] وفي أخـرى: ﴿ لـذي حجر﴾ [الفجر, 5] وفي أخرى: ﴿ لأولي النهى﴾ [طــه, 54] ونحو ذلك مما يعده من لا يحق الحق ولا يبطل الباطل أنه باب واحد, فيقدر أنه إذا فسر: ﴿ الحمد لله﴾ بقوله: الشكر لله, و﴿ لا ريب فيه﴾ بلا شك فيه, فقد فسر القرآن ووفـاه البيان"[69]

إن من لم يدرك بنائيـة القـرآن ووحـدة ألفاظـه العضـوية, يمكن أن يقع في تعضية وتمزيع خطيرين بإدخاله فيــه من خارجــه مــدلولات ألفــاظ لا تمت (أي المــدلولات) إليــه بصلة, مما من شأنه أن يحول دون الاستهداء به نحو الـتي هي أقــوم. إن الترتيـل وحـده هـو الـذي يمكن من ربـط

[69] - مفردات ألفاظ القرآن, 54-56

المفردات ببعضها, ومن اختبار ما فهمناه منها بفتنتـه على نور الآيات, عن طريق السير في القرآن وفي الآفاق.
ولا يفوتنا أن ننوه- إذ لا نريد إعادة اختراع العجلة- بالجهود الوضيئة التي بذلها مفسرونا, في مجال الكشف عن مدلولات ألفاظ القرآن الكريم, ولا سيما ضمن إطاراتها الموضعية, مما يكون له- ولاشك- أوسع النفع وأعمه على عملية الترتيل. كما لا يفوتنا التنويه بجهود الفقهاء, رغم اقتصاره على ما يتصل بالاختصاص, وجهدهم كجهد المفسرين, يظل في أغلبيته غير مجموع ولا موثق ولا مرتب الترتيب التاريخي الذي ينظم وييسر الاستفادة منه في الدرس الدلالي للمفاهيم القرآنية. كما أن جهد المعجمين قمين بكل إشادة ولاسيما أصحاب كتب غريب القرآن, وفي مقدمتهم فخرهم وإمامهم : الراغب الأصفهاني المتوفى في حدود (425هـ) والذي – وكما ذكرنا- كاد يتفرد في "مفرداته" بشيء لم يسبق إليه ولم يلحق فيه, وهو التفطن إلى خصوصية الدلالة القرآنية... ويلحق بما تقدم جهود أهمها جهد أصحاب" الوجوه والنظائر". غير أن هذه الجهود كلها – على وجاهتها وأهميتها- تظل مفتقرة إلى الشروط التي تجعل من نتائجها مفاتيح للفهم الكلي النسقي للقرآن الكريم, لغيبة الإحصاء في دراسة مفاهيم الألفاظ, وتجميعها وتوثيقها وتصنيفها معجميا وتاريخيا تصنيفيا مفتوحا قابلا للتحيين مع بروز كل جديد قيل في شرح كل لفظ عبر القرون.[70] مما من شانه جميعا أن ييسر الترتيل على هذا المستوى أيما تيسير.
إنه " إذا تم مفاهيم القرآن الكريم, فقد تم تبعا لذلك ضبط مفاهيم الدين القيم... وأمكن تكوين الميزان الذي به تقوم عطاءات واجتهادات العصور... ومتى تجدد فهم المفاهيم فقد تعبد الطريق لتجديد أمر الدين لمريديه,

---

[70] - انتظر: د. الشاهد البوشيخي, نحو منهج لدراسة مفاهيم الألفاظ القرآنية, محاضرة ألقيت بندوة " القرآن المجيد وخطابه العالمي", 21-26 ماي/1997. بكلية الآداب, بأكادير.

لكن كيـف يجـدد فهم المفـاهيم؟ وكيـف نـدرس مفـاهيم الألفاظ القرآنية؟"[71]

إذا تبينت أهمية تحديد مـدلولات مفـاهيم القـرآن المجيـد, فإن القيام بالترتيـل يصـبح ضـرورة لاسـتبانة حمولتهـا؛ إذ القرآن مرتـل, حسـن النضـد- متسـق كنسـيج " الـرتيلاء" الـتي ترتـل بيتهـا بإتقـان ونظـام – تتفاضـى الآيـات فيـه والبصائر التي صرّفت فيه على شاكلة يتيسر معها الـذكر, وتمكن معها الهداية.

2- المسـتوى المـرجعي النسـقي (بنـاء الأطـر المرجعيـة والأنساق القياسية):

ونقصد بالأطر المرجعية: التضافرات المفاهيمية التي تنتج لنا – بعد ترتيلهـا – أنسـاقا تمثليـة مجاليـة تكـون بالنسـبة للتصور الكلي الكامن في القرآن المجيد بمثابة المركبـات الإدراكية المشكلة لما يشبه القطاعـات لـه, والـتي يتمكن المرتل – بالرد إلينا- من تحديد موقعه في الخارطة العامة لهـذا التصـور الكلي. ولـذلك اعتمـدنا التسـمية المفسـرة: الأنسـاق القياسـية, والـتي تفيـد أنهـا أنسـاق تـرد إليهـا مدلولات المفاهيم التي يتوصل إليها قصد قياس صوابيتها. وبناء الأطـر المرجعيـة هـذه يبـدأ بالتحديـد المـوقعي لمـا أسميناه التضافرات/المركبـات المفاهيميـة قيـد التأسـيس من التصور الكلي الكـامن, تحديـدا ينطلـق من البحث عن خيوط النسج/ الرتل الواصل بين المفاهيم المندرجة تحته. وهنـا يكـون البـاحث/ المرتِّل كالـذي يعمـل في مرصـد مسـتعملا منظـاره ليسـتوعب أكـبر مسـاحة ممكنـة من الرؤية, حريصـا على أن لا تفوتـه – مـا أمكن – شـاردة أو واردة تسعف في تمثـل بعـد معين من أبعـاد بنـاء التصـور الكلي. مما يجعل من هـذه الأطـر المرجعيـة كالمحكمـات التي تتضافر المفاهيم مفصلة تحتها. وكلما تم ارتياد آفـاق أرحب عن طريق إضافة أطر مرجعية جديدة تيسر التقاط إشارات أهدى, وأنـوار أزهـر: ﴿وإنـا لموسـعون﴾ فـالقرآن كريم, يعطي الباحث بقدر إلحاحه ودأبه.

---

[71] - المرجع السابق.

إن الأطر المرجعية أو الأنساق القياسية كاللحمة والعصب للترتيل, تضيع في غيابها ملامحه, ولا يبقى لأجزائه من المعنى والفاعلية, ولا لدقائق خيوطه من التناسق والجمال, ما للمجموع المؤتلف, والكل المنتظم:" فكم يجلب النظر القاصر لصاحبه من جور عن القصد؟ وكم ينأى به عن أروع نواحي الجمال في النظم؟ وهل يكون مثله في ذلك إلا كمثل امرئ عرضت عليه حلة موشية دقيقة الوشي, ليتأمل نقوشها, فجعل ينظر فيها خيطا خيطا, ورقعة رقعة, لا يجاوز ببصره موضع كفه, فلما رآه يتجاوز فيها الخيط الأبيض والخيط الأسود, وخيوط أخر مختلف ألوانها اختلاف قريبا أو بعيدا لم يجد فيها من حسن الجوار بين اللون واللون ما يروقه ويونقه, ولكنه لو مد بصره أبعد من ذلك إلى طرائف من نقوشها, لرأى من حسن التشاكل بين الجملة والجملة ما لم يره بين الواحد والواحد, ولتبين له من موقع كل لون في مجموعته بإزاء كل لون من المجموعة الأخرى ما لم يتبين له من قبل, حتى إذا ألقى على الحلة كلها نظرة جامعة تنتظم أطرافها وأوساطها, بدا له من تناسق أشكالها ودقة صنعتها ما هو أبهى وأبهَر."[72]

3-المستوى الترتيلي:

 إنا أنزلناه في ليلة القدر وما أدراك ما ليلة القدر ليلة القدر خير من ألف شهر [القدر, 1-3] وبالحق أنزلناه وبالحق نزل وما أرسلناك إلا مبشرا ونذيرا وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا [الإسراء, 105-106] وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارا [الإسراء, 81-82] وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا [الفرقان, 32] والفرق بين الإنزال جملة إلى السماء الدنيا والتنزيل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن التنزيل – كما

---

[72] - النبأ العظيم, 159.

يتضح في آية سورة الفرقان- كان ترتيلا بأمر الله وهو مـا اصطلحنا على تسميته في هذا البحث بالمستوى التـنزيلي من مسـتويات الترتيـل. وقـد أدرك محمـود جـار اللـه الزمخشري بلوذعية الفرق بين الإنزال والتنزيل, حين ميز بينهما في مقدمة كشافه, فقال:" الحمـد للـه الـذي أنـزل القـرآن كلامـا مؤلفـا منظمـا, ونزلـه بحسـب المصـالح منجما."[73] وإنه ليتضح بعد النظر في تراتيبه ترتيل القرآن المجيد" الأول" أنـه ترتيـل كـان يسـتبطن خطـة تشـريعية وتربوية وبنائية جلية المعالم, معجزة الملامح, فأرسى الله عز وجل بذلك للناس أسس منهج ترتيـل لا ينحبس فيضـه ولا يغيض عطاؤه. فعن عبـد اللـه بن عبـاس قـال: قـال رجـل: يـا رسـول اللـه, أي العمـل أحب إلى اللـه؟ قـال:" الحال المرتحل,". قال: وما الحال المرتحـل؟ قـال:" الـذي يضرب من أول القرآن إلى آخره, كلما حل ارتحل."[74]

وبالتأمـل يتكشـف لنـا هـذا الترتيـل (الأول) عن تخطيـط بنـائي للجماعـة الحجـة/المقيـاس/المرجـع. وقـد اسـتطاع الدكتور محمد عبد الله دراز رحمه اللـه - في مدخلـه إلى القرآن الكريم - أن يبرز أهم معـالم هـذا التخطيـط ببيـانٍ أسعفه فيه هم الإلقاء (فألقاه فإذا هي تلقف ما يـأفكون) على أفكار الغـرب, إذ بحثـه هـذا هـو كالتمهيـد للـدكتوراه حول الأخلاق التي تقـدم بهـا إلى جامعـة السـوربون, كمـا أسعفه فيه رسوخه العلمي, واتزانه الطبعي, يقول:

"ومـــا علينـــا إلا أن نســـتعرض –من أولهـــا إلى آخرهـــا- المراحـل التدريجيـة للعـرض, خلال الثلاث والعشـرين سنة من النبوة إلى الرسـالة, من (اقـرأ) بسـورة العلـق, إلى (قم فأنذر) بسورة المدثر. ومن الدعوة السـرية إلى الـدعوة الجهريـة: فاصـدع بمـا تـومر وأعـرض عن المشركين [الحجر, 94]. ومن دعوة الرسولصـلى اللـه عليه وسلم لأقاربه: وأنذر عشيرتك الأقـربين [الشـعراء, 213] إلى دعـوة مكـة بأسـرها: ومـا كـان ربـك مهلـك القـرى حـتى يبعث في أمهـا رسـولا يتلـو عليهم آياتنا

---

73 - الكشاف, المقدمة

74 - الترمذي, كتاب القراءات, برقم 2948.

[القصص, 59] ثم القـرى المجـاورة: ﴿ ولتنـذر أم القـرى ومن حولها﴾ [الأنعــام, 92] ثم البشــرية جمعــاء: ﴿ومــا أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾ [الأنبياء, 107]. ومن إرسـاء القواعد الأساسية للإسلام في السور المكية, إلى التطبيق العملي في الســـور المدنيـــة. ومن التبغيض في شـــرب الخمر: ﴿يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبـير ومنافع للناس وإثمهمـا أكـبر من نفعهما﴾ [البقـرة, 219] إلى تحريمهـا صـراحة: ﴿إنمـا الخمـر والميسـر والأنصـاب والأزلام رجس من عمـــل الشـــيطان فـــاجتنبوه لعلكم تفلحون﴾ [المائدة, 90]. ومن الدعوة إلى الصبر واحتمال الأذى: ﴿ألم تر إلى الـذين قيـل لهم كفـوا أيـديكم وأقيمـوا الصــلاة وآتــوا الزكــاة ﴾ [النســاء, 77] إلى المقاومـــة المسـلحة: ﴿وقـاتلوا في سـبيل اللـه الـذين يقـاتلونكم ولا تعتدوا﴾[البقرة: 190]...

وقد يكفي أن نسجل هنا تاريخين على جانب من الأهميـة, هما تاريخ انطلاق الدعوة وتـاريخ اختتامهـا. فالتـاريخ الأول هو يوم غار حراء, حين تلقى محمدصلى الله عليـه وسـلم الوحي لأول مرة, وأعلن فيه أنـه سـيتلقى علمـا من قبـل الله ﴿ الذي علم بالقلم علم الإنسان مـا لم يعلم﴾[العلـق, 4-5] وسيكلف بمهمة شاقة: ﴿إنا سنلقي عليك قولا ثقيلا﴾ [المزمل, 5], أما التـاريخ الثـاني فهـو يـوم حجـة الـوداع, حين أعلن الرسول صلى الله عليه وسلم بأن رسـالته قـد تمت, وأن مهمتـه على الأرض قـد انتهت: ﴿اليـوم أكملت لكم دينكم وأتمت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا﴾ [البقـرة, 280] وبعـد ذلـك لم يلبث الرسـول صـلى اللـه عليه وسلم أن لحق بالرفيق الأعلى. إن هـذا التطـور إذن كان متفقا مع خطة تربوية وتشـريعية موضـوعة في وقت سابق, في إجمالها وفي تفصـيلها, بمعرفـة مـنزل الـوحي سبحانه وتعالى. فإذا كانت هذه النصوص ذاتها التي كـانت تتبع في نزولها تخطيطا تربويا ممتـازا قـد تحـولت بمجـرد نزولها من شكلها التاريخي لكي تتوزع وتتجمـع في شـكل آخر, على هيئة إطارات محـددة ومختلفـة الأطـوال, بحيث يظهر من هـذا التوزيـع المقصـود في النهايـة كتـاب يقـرأ

مكـــون من وحـــدات كاملـــة, لكـــل منهـــا نظامهـــا الأدبي والمنطقي, لا يقل روعة عن النظام التربوي العـام. فهـذا هـو التخطيـط المـزدوج الـذي لا يمكن أن يصـدر عن علم بشر."[75]

إن جبريـــل قـــد أرســـى معـــالم منهج الترتيـــل من خلال تنزله- بأمر الله[76] - بالآيـات على قلب رسـول اللـه صـلى الله عليه وسلم, آيات كانت تنير سبيل الجماعة المســلمة الأولى وطريقهـــا, والـــتي كـــان كـــل فـــرد من أفرادهـــا الصـادقين- وتحت عين الرسـول صـلى اللـه عليـه وسـلم الحريص الرؤوف الرحيم –" يتلقى القرآن ليتلقى أمر الله في خاصة شأنه وشأن الجماعة الـتي يعيش فيهـا, وشـأن الحياة التي يحياها هو وجماعته."[77]

وهـذه حقيقـة تنبـه لهـا بنفـاذ والتيـاع الأسـتاذ سـيد قطب رحمــه اللــه فعــبر عنهــا في غــير مــا موضــع من كتاباتــه القرآنيـــة القيمـــة. لقـــد لفت انتباهـــه رحمـــه اللـــه العلاقـــة العضوية بين القرآن وواقع الإنسان, كمـا لفت انتباهـه أن القرآن جاء ليعمل في الناس بجهد الناس أنفسهم, وابتداء من النقطة التي يجدهم عندها , بمنهج هو منهجه, فإذا مــا تم الحيـاد عنـه غيض مفعولـه الشـامل, وإن بقيت لـه في واقع الناس – ولا شك- بركات. وقــد كــان همــه المركــزي في مجمل كتاباته عن القرآن أن ينبـه إلى هـذه الحقيقـة, والتي نرى الوعي بها المقدمة الأساس لعملية الترتيل في مستواها التنزيلي يقول رحمه الله:

"إن القرآن لا يمنح كنوزه إلا لمن يقبل عليه بهذه الـروح, روح المعرفة المنشئة للعمل. إنـه لم يجيء ليكـون كتـاب متاع علي ولا كتاب أدب وفن ولا كتاب قصـة وتـاريخ- وإن كان هذا كله من محتوياته- إنما جـاء ليكـون منهـاج حيـاة, منهاجا إلهيا خالصا, وكان الله سبحانه يأخذهم بهذا المنهج مفرقا, يتلو بعضه بعضا... لم ينزل هذا القرآن جملة, إنمـا

---

[75] - محمد عبد الله دراز. مدخل إلى القرآن الكريم, 123-124.

[76] - وما نتنزل إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك وما كان ربك نسيا [مريم, 64]

[77] - سيد قطب "معالم في الطريق", 18.

نزل وفق الحاجـات المتجـددة, ووفـق النمـو المطـرد في الأفكار والتصورات, والنمو المطرد في المجتمع والحياة, ووفق المشكلات العملية التي تواجهها الجماعة المسـلمة في حياتها الواقعية. وكانت الآية أو الآيات تنزل في الحالة الخاصة والحادثة المعنية تحدث النـاس عمـا في نفوسـهم وتصور لهم ما هم فيه من الأمر, وترسم لهم منهج العمـل في الموقـف وتصـحح لهم أخطـاء الشـعور والسـلوك, وتربطهم في هذا كلـه باللـه ربهم, وتعرفـه لهم بصـفاته المـؤثرة في الكـون, فيحسـون حينئـذ أنهم يعيشـون مـع الملأ الأعلى تحت عين اللـه في رحـاب القـدرة, ومن ثم يتكيفون في واقع حياتهم وفق ذلك المنهج الإلهي القويم.
إن منهج التلقي للتنفيذ والعمـل الـذي صـنع الجيـل الأول, ومنهج التلقي للدراسة والمتاع هو الذي خرج الأجيال التي تليـه, ومـا من شـك أن هـذا العامـل الثـاني كـان عـاملا أساسـيا كـذلك في اختلاف الأجيـال كلها عن ذلـك الجيـل المميز الفريد."[78]
إن إحلال الآيـات والبصـائر – تـرتيلا- في واقـع النـاس هـو العمل الذي قام به محمـد بن عبـد اللـه صـلى اللـه عليـه وسلم مع الجماعة المسلمة الأولى التي تعتبر جنين الأمـة الفرد/ الجسد, الأمة التي تكتمل عبر الزمن, فتركها صلى الله عليه وسلم مقياسا شاخصا لا تتخوفه[79] الأحداث. فهو صلى الله عليه وسـلم شـبه عملـه – ضـمنا- بعمـل الفلاح البصير الذي يعالج الأرض الصالحة متحينا أوقـات الحراثـة والنقش والتنقية والسقي, مترصدا تقلب الأنواء, محـددا – عبر المواسم- أنواع الوظـائف والمهـام الـتي يرتبهـا على نفسه لاستخراج أحسن مـا يمكنـه – بقـدر اللـه- من هـذه الأرض. فعن ابن مسعود قال:" كان النبيصلى الله عليـه وسـلم يتخولنـا بالموعظـة في الأيـام كراهـة السـآمة علينا."[80] قـال النـبي صـلى اللـه عليـه وسـلم :" مثـل مـا

[78] سيد قطب , معالم في الطريق, 17-19.
[79] - التخوف: التنقص, والأخذ من الأطراف.
[80] -البخاري, كتاب العلم, باب: ما كان النبي صلى الله عليه وسلم يتخولهم الموعظة والعلم, برقم :68. وعند مسلم, كتاب المنافقين, 82-83, والترمذي في الأدب, 72, واحمد. 1-377-378-425...

بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضا فكان منها نقية قبلت الماء, فابتت الكلأ والعشب الكثير,وكانت منها أجادب, أمسكت الماء, فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا, وأصاب منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ, فذلك مثل من فقه في دين الله, ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلّم, ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به."[81]

وقد استرعى هذا المستوى الثالث من مستويات الترتيل اهتمام مجموعة من العلماء, وخاصة العاملين منهم المكابدين, يقول ابن القيم رحمه الله, وهو بصدد بيان اقتضاء تنزيل أحكام القرآن الشافية على الواقع العيني المشخص المتغير نوعين من الفهم:

"أحدهما: فهم الواقع والفقه فيه, واستنباط علم حقيقة ما وقع بالقرائن والأمارات والعلامات حتى يحيط به علما.

والنوع الثاني: فهم الواجب في الواقع, وهو فهم حكم الله الذي حكم به في كتابه أو على لسان رسوله في هذا الواقع, ثم يطبق أحدهما على الآخر. فمن بذل جهده واستفرغ وسعه في ذلك لم يعدم أجرين أو أجرا, فالعالم من يتوصل بمعرفة الواقع والتفقه فيه إلى معرفة حكم الله ورسوله ... ومن تأمل الشريعة ... وجدها طافحة بهذا, ومن سلك غير هذا أضاع على الناس حقوقهم, ونسبه إلى الشريعة."[82]

وقد فصل علماؤنا رحمهم الله في كيفيات هذا التنزيل, وفرعوا القول في شروطه ومناطاته- تخريجا وتنقيحا وتحقيقا - ومقاصده ومآلاته والموازنات بين المصالح والمفاسد التي قد تنتج عن هذا التنزيل, كما فصلوا القول في وسائل ترتيب الأولويات, وميزوا بين الأَوْلى في كل نازلة وغيره, وتتبعوا الاحتمالات والوجوه والأشباه والنظائر, فنتج من ذلك كله فقه تنزيلي ضاف ووضيء, فأدوا بذلك رحمهم الله ما عليهم, وعلينا أن نؤدي ما

---

[81] - البخاري, كتاب العلم, باب: فضل من علم وعلّم, برقم 79.

[82] - ابن القيم, إعلام الموقعين, 1/87/88.

علينـا." ذلـك أن الشـريعة لم تنص على حكم كـل جزئيـة على حـدتها, وإنمـا أتت بـأمور كليـة, وعبـارات مطلقـة, تتناول أعدادا لا تنحصر, ومـع ذلـك فلكـل معين خصوصـية ليست في غيره, ولو في نفس التعيين, وليس به الامتيـاز معتـبرا في الحكم بـإطلاق, ولا هـو طـردي بـإطلاق... فلا يبقى صورة من الصور الوجودية المعينـة إلا وللعـالم فيهـا نظر سهل أو صعب, حتى يحقق تحت أي دليـل تـدخل؟... ولو فرض ارتفاع هذا الاجتهاد, لم تتنزل الأحكام الشـرعية على أفعـال المكلفين إلا في الـذهن, لأنهـا مطلقـات وعمومـات, ومـا يرجـع إلى ذلـك مـنزلات على أفعـال مطلقات كذلك. والأفعال لا تقع في الوجود مطلقة, وإنمـا تقع معينة مشخصة, فلا يكـون الحكم واقعـا عليهـا إلا بعـد المعرفـة بـأن هـذا المعين يشـمله ذلـك المطلـق أو ذلـك العام, وقد يكون ذلك سهلا وقد لا يكون."[83]

وإنمـا الموفـق من وفقـه اللـه، وصـلى اللـه على سـيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

ـــــــــــانتهى.

---

[83] الموافقات الشاطبي 4/92-93.

السُّنَنُ الاجْتِمَاعِيَّةُ في الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ (2/2)

بقلم أ.د. محمد السيسي(*)

بعد أن تَمَّ للأستاذ الدكتور محمد السيسي – في العدد الأول من المجلة - بيانُ مفهومِ (السنن الاجتماعية) في القرآن الكريم ومنهجِ توظيفها، وَتَمَّ له عَرْضُ (سنن التأسيس والبناء) من أنواعها؛ يستمر الآن في عرض الباقي – حسب تصنيفه لها - ويتناول في هذه المقالة: ما سماه بـ(سنن الإحياء والتمكين)، و(سنن التحصين والتحذير)، و(سنن السقوط والانهيار). وذلك كما يلي:

سنن الإحياء والتمكين

قال الله تعالى في قصة موسى عليه السلام: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ. وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾[84] قال ابن باديس رحمه الله مفسراً: (السر المتجلي من هذه الآية هو أن الله أراد بما صنع من بني إسرائيل وبما قال لهم، أن يعلم الإنسان من سنن الله في كونه ما لم يكن يعلم، وهو إخراج الضد من الضد، وإخراج الحي من الميت، وإنقاذ الأمة الضعيفة التي لا تملك شيئا من وسائل القوة الروحية ولا من وسائل القوة المادية من استعباد الأقوياء المتألهين... فهو مثل عملي ضربه الله لخلاص أضعف الضعفاء من مخلب أقوى الأقوياء، وجعل المستضعفين أئمة وارثين وسادة غالبين والتمكين لهم في الأرض،

---

* رئيس وحدة الدرس القرآني والعمران البشري/كلية الآداب مكناس.

[84] القصص 4و 5.

وإرادة الأقوياء المستعلين في الأرض عاقبة باطلهم لكي لا ييأس المستضعفون في الأرض من روح الله)([85]).

وإذا علمنا أن الآيتين مكيتان وأن الفترة المكية تميزت بوضع الاستضعاف الذي عانى منه الرعيل الأول من المسلمين في المجتمع المكي الذي يشير إليه قوله تعالى: (وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمْ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)([86]). فإذا علمنا ذلك وقارناه بالوضع في الجزائر – إبَّانَ الاستعمار - وما كان يكابده أهلها من اضطهاد واستضعاف، ندرك مدى أهمية الاتجاه بالتفسير القرآني نحو بيان سنن الله في المجتمعات وعرض تجارب التاريخ البشري وأهمية كل ذلك في استنهاض الهمم وسوقها إلى مقاومة الغزو، واسترجاع عزة الإسلام، وتلك ذخيرة من الذخائر القرآنية التي لا حصر لها، والتي يعد بها القرآن الجماعة المسلمة لمواجهة كل المواقف التي تتعرض لها في حياتها، (حين تستحضر في نفسها أن القرآن هو كتاب الله الحي ورائدها الناصح وأنه هو مدرستها التي تتلقى فيها دروس حياتها)([87]).

ومن هذه الدروس ما ساقه مفسرو الاتجاه أسبابا لإعادة البناء وتهيئة للتمكين، استنباطا مما ذكره القرآن الكريم سننا وقوانين في صيغة شروط وعلل.

---

[85] - مجالس التذكير 663، ويستشهد لهذه المعاني بآيات أخرى في هذا السياق كقوله تعالى على لسان موسى (عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون) الأعراف 129. ومن هذا القبيل المثل العملي الذي أشار إليه قوله تعالى: (ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم...) البقرة 243. انظر نفس المصدر 664.

[86] - الأنفال 26، وجاء تفسير الآية "إن الخطاب للمؤمنين في عهد نزول السورة يذكرهم بما كان من ضعفهم وقلتهم بمكة ومن العبرة في الآيات أنها حجج تاريخية اجتماعية على كون الإسلام إصلاحا لمن اهتدى به دينا ودنيا" تفسير المنار 9/640.

[87] - تفسير الظلال 1/382 وهو تمهيد لتفسير الآيات التي عرضت فيها قصة طالوت وجالوت وهي كلها سنن اجتماعية وقد صنفها تفسير المنار عقب تفسير القصة في فصل خاص.

جاء في تفسير قوله تعالى: (وما أنا بطارد الذين آمنوا إنهم ملاقو ربهم) ([88]). "إن قول نوح هذا مبني على سنن الاجتماع في الزعامة والعصبية، وتأليف الجماعات التي تحدث الانقلاب في الأمم، وكون ثباتها وظفرها رهينا بإيمان الجماعة التي تألفت لأجله... ومن ولاية بعضهم لبعض بصفة يكون فيها الزعيم خير قدوة للأفراد بتفضيله أدنى المؤمنين منهم على أعظم الكبراء من خصمهم" ([89]). وقد وضع الله تعالى بفضله قواعد نرجع إليها ونتوالى فيها في قوله تعالى: (واعتصموا بحبل الله جميعا) ([90]). فمن القواعد المسلمة أنه لا تقوم لقوم قائمة إلا إذا كانت لهم جماعة تضمهم ووحدة تجمعهم فيكونون بذلك أمة حية كيانها واحد، ولا يوجد سبب لهذا التوحيد الذي يتم في إطار التعاون من أجل البناء" كالتآلف والتحاب ولا يوجد سبب للتحاب والتآلف كأخوة الإيمان... ولقد اتفق حكماء البشر على أن المحبة أعظم الروابط بين البشر وأقوى الأسباب لسعادة الاجتماع الإنساني وارتقائه" ([91]). وإن من سنن الاجتماع أن ارتقاء الأمم والشعوب هو أثر طبيعي لإحسان أعمالها في أسباب العيش والثروة والتكافل والتعاون على المصالح والمقومات العامة لها، يأخذ ابن باديس مضمون هذه السنة الاجتماعية من قوله تعالى: (إنما المومنون الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه) ([92]) ليجمع لنا شروط النهضة بقوله: "إنما ينهض المسلمون بمقتضيات إيمانهم بالله ورسوله، إذا كانت لهم قوة تجمعهم، وإنما تكون لهم قوة إذا كانت لهم جماعة منظمة تفكر وتدبر وتشاور وتتآزر وتنهض لجلب المصلحة ولدفع المضرة" ([93]). وتلك هي

---

[88] - هود. 29

[89] - تفسير المنار 12/241.

[90] - آل عمران 103.

[91] - تفسير المنار 10/72 في تفسير قوله تعالى: (لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم)الأنفال 63.

[92] - النور 62.

[93] - مجالس التذكير 559.

أسباب النصر والتمكين الرئيسية وهي أسباب روحية واجتماعية وآلية، نصر الله بها الجماعة المسلمة الأولى، الجماعة المثالية التي تمثلت حقيقة واقعة في التاريخ البشري ([94]).

ومن ثم فإن الاقتداء بالسنن يقضي بتوفير هذه الشروط والأسباب لأي إحياء وأي تمكين، وإن قوله تعالى: (تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي...) ([95]). من السنن ما يبعث التفاؤل ويحقق الأمل في الإحياء والتجديد، خروجا من هذا الموت الاجتماعي الذي عليه الأمة.

"فقد جاء القرآن بتسمية ما يقابل الحي ميتا، سواء كانت الحياة حسية أو معنوية، وسواء كان ما أطلق عليه لفظ الميت مما يعيش ويحيى أم لا... فقد أخرج من العرب الأميين خاتم النبيئين والمرسلين، كما أخرج من سلائل الأنبياء والصديقين أولئك الأشرار المفسدين، ذلك أن سنته تعالى في الاجتماع قد أعدت الأمة العربية بأن يظهر خاتم النبيئين فيها... بارتقاء الفكر واستقلاله، وقوة الإرادة واستقلالها، حتى صارت هذه الأمة أقوى أمم الأرض استعدادا لقبول الدين، فما أعطى سبحانه ما أعطى ونزع ما نزع بإقامة السنن التي هي قوام النظام ومناط الإبداع و الإحكام" ([96]). وإن من إقامة السنن "إبداعا وإحكاما" التنبه لسنة النمو والارتقاء الطبيعي للأشياء"، فإن الجماعة المثالية التي تمثلت حقيقة واقعة في التاريخ لم تنبت فجأة، ولم توجد مصادفة... بل نمت نموا طبيعيا بطيئا، وأخذت الزمن اللازم لنموها، كما أخذت الجهد الموصول الثابت المطرد الضروري لهذا النمو، واحتاجت إلى العناية الساهرة والصبر الطويل في التهذيب والتشذيب والتوجيه والدفع... واحتاجت إلى معاناة التجارب الواقعة المريرة والابتلاءات الشاقة

---

[94] - تفسير الظلال 7/521، ومجالس التذكير 285 و 286.

[95] - آل عمران 27.

[96] - تفسير المنار 3/275.

المضنية، مع التوجيه لعبرة هذه التجارب والابتلاءات" ([97]).

سنن التحصين والتحذير

إن فهم طبيعة قيام هذا الدين واقعا في إطار سنن التدافع والتداول والابتلاء والولاء والتناصر... تجعلنا نسأل إذا قام المجتمع الإسلامي واقعا عمليا ألا يحتاج إلى تحصين وصيانة؟ وإن كان يحتاج إلى هذه الصيانة والتحصين فكيف يتم ذلك؟

تؤكد الدراسات التاريخية الاجتماعية –وقبلها القرآن الكريم ([98])- أن الكيان الاجتماعي للأمة كالكائن الحي، يجب أن تتوفر له البيئة المناسبة لنشأته ونموه ونضجه، فإذا ما استوى على سوقه قائما احتاج إلى الصيانة والرعاية، حفظا له من الآفات والأمراض الاجتماعية([99])، المؤدية إلى موته وذهابه اجتماعيا.

ولقد اعتنى القرآن الكريم بصيانة المجتمع الإسلامي عنايته بتأسيسه وبنائه بالتنصيص على السنن والقوانين نصا وتنبيها وإشارات في قصص الأولين، وهو يسرد الوقائع والأحداث، ولقد تولى إبرازها الاتجاه الاجتماعي في التفسير، في إطار مشروعه الرامي إلى تزويد الأمة بكل ما هي في حاجة إليه في واقعها، حتى تسترد عافيتها، وتصون أي مكتسب ميداني تحصل عليه، أو ترد أي خطر يهدد وجودها.

---

[97] - تفسير الظلال 7/521 في التقديم لسورة الحجرات التي تكاد تستقل بوضع معالم كاملة لعالم رفيع كريم نظيف سليم بما تتضمه من القواعد والأصول والمبادئ والمناهج التي وردت في السورة لقيام الأمة أولا، وصيانتها ثانيا، انظر 7/519، من تفسير الظلال.

[98] - وهذا هو موضوع هذا المطلب بما تدل عليه آيات القرآن الكريم من أمر بالعناية بالمجتمع وقاية وتحصينا.

[99] - فالقرآن الكريم لما أخرج الأمة من طور الاستعداد والإعداد إلى طور الواقع الفعلي، وأضحى كيانا واقعا – بتوفيق إلهي وجهد بشري- انتقل بالأمة إلى مرحلة البناء الداخلي لإحراز درجة الخيرية المعبر عنها في قوله تعالى: (كنتم خير أمة أخرجت للناس تامرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتومنون بالله) آل عمران 104.

جاء في تفسير قوله تعالى: (اهدنا الصراط المستقيم) ([100]) "خلق الله الإنسان ليعيش مجتمعا، ولم يعط من الإلهام والوجدان ما يكفي مع الحس الظاهر لهذه الحياة الاجتماعية" ([101]).... فحباه الله هداية هي أعلى من هداية الحس والإلهام، وهي العقل الذي يصحح به غلط الإحساس والمشاعر، وهداية الدين التي تقوم غلط العقل وتقي المشاعر والحواس مزالق الزلل... وإن ثلاثة أرباع القرآن تقريبا قصص وتوجيه للأنظار إلى الاعتبار بأحوال الأمم في كفرهم وإيمانهم وشقاوتهم وسعادتهم... ولا شيء يهدي الإنسان كالمثلات والوقائع، فإذا امتثلنا الأمر والإرشاد، ونظرنا في أحوال الأمم السالفة وأسباب علمهم وجهلهم، وقوتهم وضعفهم... كان لهذا النظر أثر في نفوسنا يجملنا على حسن الأسوة والاقتداء بأخبار تلك الأمم في ما كان سبب السعادة والتمكن في الأرض، واجتناب ما كان سبب الشقاوة أو الهلاك والدمار" ([102])، ليعلم وسائل التحصين والحفظ ويجعلها أسبابا وشروطا للصيانة المطلوبة، منعا لأي خطر متوقع يهدد أمر الاجتماع ونظامه عملا بمقتضيات الإيمان الداعية إلى حفظ عمود الإسلام، فلقد أخبر القرآن الكريم أن مدينة سبأ كانت مدينة مزدهرة مستكملة الأدوات، ممتدة العمران، في قوله تعالى: (لقد كان لسبإ في مساكنهم آية جنتان عن يمين وشمال) ([103]) وقوله سبحانه: (وقدرنا فيها السير سيروا فيها ليالي وأياما آمنين) ([104]). "ولكن فات القوم أن يحصنوا هذه المدينة الزاخرة بسياج الإيمان والشكر والفضيلة. وكل مدينة لم

---

[100] - الفاتحة 5.

[101] - كما أعطى النحل والنسل فإن الله منحها من الإلهام ما يكفيها بان تعيش مجتمعة... أما الإنسان فلم يكن من خاصية نوعه أن يتوفر مثل هذا الإلهام.

[102] - مجالس التذكير 83 ومن السنن في الآية الإشارة إلى استحالة قيام العلاقات الاجتماعية بدون سنن التفاضل هذه المبنية على الفردية التي يؤكدها قوله تعالى: (نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا) الزخرف 31.

[103] - سبإ 158.

[104] - سبإ 18.

تحصن بهؤلاء فمصيرها إلى خراب، والناس من قديم مفتونون بعظمة المظاهر، يحسبون أنها خالدة بعظمتها باقية بذاتها، فالقرآن يذكر لنا كثيرا من مصائر الأمم حتى لا نغتر بمظاهرها، وحتى نعلم أن سنة الله لا تتخلف في الآخرين، كما لم تتخلف في الأولين" ([105]) ومن هنا وجب الاعتبار وأخذ الحذر والحيطة، فما الاعتبار إلا تنبؤ وحذر برصد الواقع وتتبع أي ظاهرة تظهر في المجتمع وعرضها على الكتاب والميزان لنرى هل هي ظاهرة متوجهة في إطار قيام الناس بالقسط، ومن ثم تزكيتها. أم هي متوجهة نحو خراب العمران ومحو آثاره، ومن ثم وجب إصلاحها قبل فوات الأوان ([106]).

فقيام الناس بالقسط بالمعنى الواسع له هو من وجهة نظر القرآن "سبب وشرط لما وعدت به الأمة من التمتع المادي والمعنوي وما في معناهما من حفظ النعم ودفع النقم وهذا مما يدل عليه قوله تعالى: (وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إيه يمتعكم متاعا حسنا إلى أجل مسمى ويوت كل ذي فضل فضله) ([107]). الذي يعتبر بيانا لسنة من سنن الاجتماع، وهو أن الصلاح والإصلاح سبب لارتقاء الأمم والأقوام، كما أنه سبب لارتقاء الأفراد" ([108]). وإن في قوله تعالى: (يمتعكم متاعا حسنا) الوعد بالتمتع "بكل ما ينتفع به من المعيشة وحاجات البيوت تمتعا طويلا ممتدا... إن تستغفروا ربكم عند كل ذنب،

---

[105] - مجالس التذكير 679-681.

[106] - إن مقصود الدين صلاح الفرد، وصلاح الفرد هو صلاح المجموع وما من شيء مما شرعه الله إلا وهو راجع على العباد بالصلاح، وما من شيء نهى عنه إلا وهو عائد عليه بالفساد وميزان الصلاح والفساد هو ظهور الأعمال فمن شاهدنا مكنه الأعمال الصالحة وهي الجارية على سنن الشرع حكمنا بصلاحه، ومن شاهدنا منه خلاف ذلك حكمنا بفساده ولا طريق لنا في معرفة الصلاح والفساد إلا هذا الطريق وهذا مما تدل عليه الآيتان 113-114 من آل عمران.

[107] - هود 3

[108] - تفسير المنار 12/240. ويضيف وقد كانت هذه السنة المعروفة للمهتدين بالقرآن لسفلنا الصالح، فمن الآثار المروية عن العباس – عم النبي (ص) أنه لما قدمه عمر بن الخطاب على نفسه في صلاة الاستسقاء لقربه من النبي (ص) وشبهه به كان مما قاله العباس في دعائه: اللهم إنه بم ينزل بلاء إلا بذنب، ولم يرفع إلا بتوبة.

وتتوبوا إليه من كل إعراض عن هدايته، وتنكب عن سنته... (إلى أجل مسمى) عنده، وهو العمر المقدر لكم في علمه، المكتوب في نظام الخليقة، وسنن الاجتماع البشري في عباده، فلا يقطعه إهلاككم بعذاب الاستئصال، ولا بفساد العمران وسلب الاستقلال... وذلك أن لتنغيص الحياة في الدنيا، وسلب النعم من أهلها؛ أسبابا ترجع كلها إلى الإصرار على الكفر والذنوب...." ([109]) وهذه السنة الربانية مطردة في الأمم مسلمها وكافرها.

وأما قوله تعالى: (ويوت كل ذي فضل فضله) فهو عام مطلق أيضا في جزاء الأفراد في الدنيا والآخرة، ومعناه مع الذي قبله: "إنكم أيها المخاطبون بهذه الآيات إن تجتنبوا الشرط وتؤمنوا بالله ورسوله، وتستغفروا ربكم وتتوبوا إليه عقب كل ذنب يقع منكم، يمتعكم بجملتكم ومجموعكم متاعا حسنا، تكونون به خير الأمم نعمة وقوة وعزة ودولة" ([110]).

وإن الذي يجعل هذا الخلق حالة حاضرة يديرها المجتمع المسلم بين أفراده هو مبدأ التقوى "الأساس الأعظم لسنن الاجتماع في فوز الجماعات الدينية و السياسية، والشعوب والأمم في مقاصدها، كما أنه هو الأساس الراسخ لفوز الأفراد في أعمالهم الدينية والدنيوية من مالية واجتماعية، فإن من المعاني التي تؤخذ من سنة جعل العاقبة للمتقين في قوله تعالى: (فاصبر إن العاقبة للمتقين) ([111]) "اتقاء كل ما يفسد العقائد والأخلاق والروابط الخاصة والعامة، وتحري ما يصلحها بهدي الكتاب والسنة وما أرشدا إليه من سنن لله

---

[109] - المصدر نفسه، 12/7

[110] - تفسير المنار 12/8 ويضيف إن هذا الفضل في الآخرة يكون مطردا كاملا وأما في الدنيا فقد يكون ناقصا بقصر الأعمار، والتعارض والترجيح في سنن الأسباب والمسببات... وبهذا التفسير يظهر أن ثمرة الدين سعادة الدنيا والآخرة، وهو تفسير غفل عنه المفسرون الذين يعارضون أمثال هذه النصوص بما جعلوه أصلا يرجعونها إليه بالتأويل، كأحاديث ذم الدنيا وتسميتها سجن المؤمن وجنة الكافر. وما يصح منها كهذا الحديث محمول على النسبة بينهما، بالإضافة إلى حال كل منهما في الدنيا والآخرة.

[111] - هود 49.

تعالى في حياة الأمم وموتها وضعفها، وبقاء دولها وزوالها، وكون هذه السنن مطردة في جميع الشؤون العامة، من منزلية ومدنية ومالية وحربية وسياسية، لا تبديل لها ولا تحويل ولا محاباة فيها بين أهل الملل والنحل"([112]).

ولما كان بيان هذه السنن والاعتبار بها من مقاصد القرآن الكبرى فإن من شأن المسلمين طلب ما هو أثر لازم للإيمان به " وإنما تتحقق الغاية ولوازم الأمور بطلبها والسعي إليها، فليس من هدي القرآن أن يترك المسلمون الدنيا ومعايشها أو سياستها، فإن من معاني التقوى " في قوله تعالى: (هدى للمتقين) ([113]) اتقاء عذاب الله وعقابه. وإن العقاب الذي يجب على الناس اتقاءه قسمان، دنيوي وأخروي وكل منهما يبقى باتقاء أسبابه، وهي نوعان: مخالفة دين الله ومخالفة سننه في نظام خلقه.

فأما عقاب الأخرى فيتقى بالإيمان الصحيح، والتوحيد الخالص، والعمل الصالح.

وأما عقاب الدنيا فيجب أن يستعان على اتقائه بالعلم بسنن الله تعالى في هذا العالم، ولا سيما سنن اعتدال المزاج وصحة الأبدان... وسنن الاجتماع البشري... فاتقاء الفشل والخذلان في القتال – مثلا يتوقف على معرفة نظام الحرب وفنونها وإتقان آلاتها، كما يتوقف على أسباب القوة المعنوية من اجتماع الكلمة، واتحاد الأمة، والصبر والثبات والتوكل على الله" ([114]).

---

[112] - تفسير المنار 12/243، ويعلق قائلا: "ولئن سألت عن كون العاقبة للمتقين أكثر علماء الدين في الأزهر وأمثاله ممن لا بضاعة لهم في علم القرآن إلا مثل تفسير البيضاوي وما دونه كالجلالين... وكذا تفسير الألوسي الجامع لخلاصة هذه التفاسير ليقولن لأوسعهم اطلاعا: إن التقوى فعل وترك المنبهات وهذا تفسير مجمل مبهم وتقصير في ما يجب من البيان التفصيلي لها في تقوى الأفراد والجماعات وتقوى الأمة"

[113] - البقرة، 1.

[114] ـ تفسير المنار 1/ 125 فإن لله سبحانه سنن مطردة في سير نظام الكون والاجتماع، وهذا لا يلغي أن الله تعالى عناية خاصة وتفيقا يمنحهما من يشاء من خلقه فينصر الضعفاء على الأقوياء والفئة القليلة على الكثيرة بما لا ينقض به سننه. أنظر نس المصدر 9/607.

ولذلك جاء الأمر باتخاذ التدابير العملية الواقية من الفتنة في الحياة الدنيا التي تنتج عن التراخي في تغيير المنكر في أية صورة كان. بأمر موجه إلى الجماعة المسلمة في سياق التربية والتوجيه ([115]) بقوله تعالى:)واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة(([116])؛ الأمر باتقاء الفتن والمحذر منها. وإيجاب تضامن المجتمع على قمعها فلقد انطوى فيها مبدأ اجتماعي خطير؛ فالدسيسة أو النميمة أو المكيدة أو السخرية أو شائعة السوء، أو إثارة الشغب والاضطراب والقلق، وكل فتنة يثيرها فرد أو أفاد لا ينحصر شرها وضررها في الذين يثيرونها، بل لا يلبث أن يتسع الكثيرين.

ويقلق المجتمع وأمنه، مما هو مشاهد ملموس ولذلك أوجبت الآية على المجتمع التضامن في اتقاء الفتنة وتفاديها وقمعها،وعدم التهاون في أمرها"([117]).

إن هذا البعد الاجتماعي الذي اتخذه مفهوم التقوى ـ بالإضافة إلى بعده الوعظي ـ قد اتخذه من السياق العام لأحوال المجتمع الإسلامي في إطار الصراع الحضاري والغزو الفكري والعسكري الذي حاول بسط سلطته ـ اعتمادا على ما أوتيه من قوة مادية ـ على الأمة التي تمكن منها الضعف في كل جوانب حياتها، على حين غفلة من توظيف هذه السنة القرآنية الجامعة في قوله تعالى:)واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة(. التي نبهت عددا من المفسرين إلى أنواع الفتن الاجتماعية التي تكون تبعة عقوبتها مشتركة بين الفاعل للفتنة والمقصر في درئها، وكأنه بذلك يقر صاحب الفتنة على فعلته.

والمعنى بتفسير آخر للآية: "إتقوا وقوع الفتن القومية والملية العامة التي من شأنها أن تقع بين الأمم

---

[115] ـ أنظر تفسير الظلال 3/835.

[116] ـ الأنفال 25. قال ابن باديس: "وذكر المفسرون في تفسير الفتنة أشياء على وجه التمثيل لا على وجه الحصر والتحديد، فذكروا الكفر والقتل والاستدراج بالنعم وقسوة القلب والطبع عليه... وكل هذا أصاب المسلمين بسبب مخالفتهم" مجالس التذكير 564.

[117] ـ الدستور القرآني 2/314.

في التنازع على مصالحها العامة؛ من الملك والسيادة، أو التفرق في الدين والشريعة، والانقسام إلى الأحزاب الدينية كالمذاهب، والسياسة كالحكم فإن العقاب على ذنوب الأمم أثر لازم لها في الدنيا قبل الآخرة وهي عامة إلى يوم القيامة، لأنها بيان لسنة من سنن الله تعالى في الأمم والملل"([118]). الغاية منها صيانة الأمة بتحذيرها من العاقبة العقابية التي أوعد الله بها كل من خالف المصالح والمنافع.

وقد جاء تفسير هذه السنن بصور منتزعة من الواقع ومرتبطة به ارتباطا شرطيا، ليكون أوقع في ذهن المسلم ونفسه، ويزداد توغلا في أعماقه وتأصلا في علاقته مع المجتمع، أملا في أن يكون رد الفعل الشرطي عنده التحرك في عجلة من الأمر، توجهه السنن القرآنية لتدارك ما يمكن تداركه من أمر الأمة وصيانته بتغيير المنكر إلى المعروف وإن تغيير الواقع يتطلب فهم القوانين الموضوعية والأسباب والجذور التاريخية التي تحكمت في صنعه؛ فإن القرآن الكريم لا يؤكد ثبات السنن وصدقها وعموميتها فحسب، ولكنها يحولها إلى واقع حركي يفرض على الجماعة المؤمنة الملتزم أن يتجاور موقع الخطأ ـ الذي يقود إلى الهلاك والدمار ـ إلى موقع النجاة والفوز ([119]).

سنن السقوط والانهيار

إن تنزيل العزيز الرحيم، الذي أنزله الله على محمد صلى الله عليه وسلم فيه من نصب الأدلة وإقامة الحجة وكشف الحقائق وضرب الأمثال، وبيان السنن؛ ما لو تدبره الخلق حق التدبر لاستقام على الصراط المستقيم ولكن الخلق عنه غافلون. "والغفلة أشد ما يفسد القلوب؛ فالقلب الغافل قلب معطل عن وظيفته، معطل عن الالتقاط والتأثر والاستجابة، تمر به دلائل الهدى أو يمر بها

---

[118] ـ تفسير المنار 9/637،638.

[119] ـ انظر المنهج الإسلامي في دراسة المجتمع 54. وهذه المعاني مما تدل عليه الآية المفسرة وقوله سبحانه وتعالى أيضا: "فلولا كان من القرون من قبلكم أولوا بقية ينهون عن الفساد في الأرض إلا قليلا ممن أنجينا منهم".

دون أن يحسها أو يدركها ودون أن ينبض أو يستقبل"([120]). في هذا الإطار تأتي السنن المنذرة بالسقوط الانهيار والمعلنة بفساد الاجتماع والعمران؛ إما إنذارا للقوم الغافلين أو تنبيها للسادرين، أو ذكرى لمن كان له قلب وألقى السمع وهو شهيد.

والصنف الثالث هذا؛ هو الذي يحقق سنة حفظ الأمة من الهلاك، المبني على نهي أولي النُّهَى والأحلام عن الفساد في الأرض بكل أنواعه وحيثياته، حتى لا تصاب الأمة بالفتنة، فإذا وقعت الإصابة حدث الانهيار والسقوط الحضاري والعمراني، قال تعالى:)فلولا كان من القرون من قبلكم أُولُو بقية ينهون عن الفساد في الأرض إلا قليلا ممن أنجينا منهم... (([121]). فقد جاءت هذه الآية بعد بيان إهلاك الأمم بظلمهم وإفسادهم في الأرض، للإعلام بأنه لو وجد من أولئك الأقوام - الذين أهلكناهم بظلمهم - جماعات وأحزاب، أو لو بقية من الأحلام والفضائل والقوة في الحق ينهونهم عن ذلك، لما هلكوا، فإن الصالحين المصلحين في الأرض هم الذين يحفظ الله بهم الأمم من الهلاك ما داموا يطاعون فيها بحسب سنة الله. فإن من سنته سبحانه أن لا يهلك قوما إلا إذا عم الفساد والظلم أكثرهم([122]). فالأمة التي يقع فيها الفساد في أي صورة من صوره، وتجد من ينهض لدفعه، هي أمة ناجية. وأما التي يظلم فيها الظالمون، ويفسد فيها المفسدون، ولا ينهض من يدفع الظلم والفساد فيها فإن سنة الله تحق عليها بالإهلاك([123]). فإن مدار سنن السقوط الحضاري والانهيار العمراني على وجود الفساد بالقدر الذي يتحقق به شرط الهلاك وإن تفاسير العصر الحديث قد بينت لنا أنواع الفساد التي نص القرآن على تعلق إجراء سنن الإهلاك بها ومنها:

- أولا: مآل تفرق الأمة واختلافها:

---

[120] ـ تفسير الظلال 5/11.

[121] ـ هود: 116.

[122] ـ أنظر تفسير المنار 12/190،244.

[123] ـ أنظر تفسير المنار 4/632.

جاء في تفسير قوله تعالى:)ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم من بعد ما جاءتهم البينات ولكن اختلفوا... (([124]) "إن الوجود قد كان ولا زال مصدقا لما جاء به الكتاب العزيز من إهلاك الاختلاف في الدين والأمم ... ولم يذكر الله هذا المرض الاجتماعي إلا وقد بين علاجه للمسلمين وهو تحكيم الله تعالى فيما اختلفوا فيه. ورد ما كان من المصالح الدنيوية والأمور السياسية إلى أولي الأمر"([125]) فإن الآفة الكبرى التي قضت على الحضارات، وجعلت عاليها سافلها؛ هي التفرق بين بُنَاةِ الأمة، والمستحفظين عليها!([126]) وإن الله تعالى يحذر الأمة الإسلامية من هذه الآفة؛ بذكر عاقبتها في الأمم قلبها بقوله تعالى:)ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات(([127])؛ "وهم أهل الكتاب، تفرقوا في الدين وكانوا شِيَعاً ... وصار كل ينصر مذهبه حتى تعادوا واقتتلوا على ذلك! فلا تكونوا مثلهم فيحل بكم ما حل بهم!"([128]).

ومما يلاحظ أن القرآن الكريم في نهيه عن التفرق، وبيان كونه سببا للسقوط الحضاري قد ربط ذلك في كثير من الحالات بذكر ما أصاب أهل الكتاب بسبب التفرق ([129]) فقد نهت الآية القرآنية عن الانقسام والتفرق والاندفاع وراء الأهواء والمآرب وحب الاستعلاء والبغي ... واحتوت أمرا للنبي صلى الله عليه وسلم وللمسلمين بالاستقامة على الحق وعدم السير في طريق الفرقة والهوى؛ على أنها تلهم مبدأ خطيرا من المبادئ الاجتماعية ... وهو تقرير ما ينتج عن التفرق في الدين واتباع الهوى فيه من الضرر العظيم في الكيان الاجتماعي؛ إذ أن كل حزب يكون معتدا عنده ... متعصبا

---

[124] ـ البقرة: 251.
[125] ـ تفسير المنار 2/11.
[126] ـ أنظر مجالس التذكير 696.
[127] ـ آل عمران: 105.
[128] ـ تفسير المنار 4/47،48.
[129] ـ أنظر الآيات 175 البقرة النساء و12، 13 الشورى و15، 16 الجافية و1، 2، 3 البينة

له، وهذا يدعو بطبيعة الحال إلى التنازع والتنابذ والكيد والبغضاء... وتشويه الحق والمكابرة فيه، وضعف التواثق والتعاون على ما فيه الخير. وفي هذا هدر لقوى المجتمع وجهوده، وصرف له عما هو جوهري ونافع من الأمور والمصالح ... وفتح للثغرات في صفوف. مما يؤدي إلى تضعضعه وانفراط عقده([130]). ومن ثَمَّ كان ترك التناصر والموالاة مؤديا إلى حدوث الفساد الكبير المحذر منه في قوله تعالى:)"والذين كفروا بعضهم أولياء بعض، إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير(([131]) أي: إن لم تفعلوا ما ذكر؛ وهو ما شرع لكم من ولاية بعضكم لبعض وتناصركم وتعاونكم ... يقع من الفتنة والفساد الكبير في الأرض ما فيه أعظم الخطر عليكم بتخاذلكم وفشلكم ... ومن وقف على تاريخ الدول الإسلامية التي سقطت وبادت، والتي ضعفت بعد قوة يرى أن السبب الأعظم لفساد أمرها ترك تلك الولاية واستبدال غيرها بها([132]).

وقد كانت تعصف بالمسلمين عواصف التفرق فيرجعون إلى القرآن ويعتصمون بالإسلام فيجدون فيه الذراع الواقية، إلى أن خالطتهم الأعراق المدسوسة ومازجتهم الجراثيم الغربية، وإبتلوا بلقاح السوء ـ مما أفسد من قبلكم ـ فكان من تأثير ذلك أنهم انتقلوا من التفرق الذي يعصم منه الدين إلى التفرق في الدين نفسه، وفي القرآن نفسه([133]).

- ثانيا: مآل الغدر ونقض العهود قال تعالى:)إن الله يدافع عن الذين آمنوا إن الله لا يحب كل خوان كفور(([134]). جاء في تفسير الآية ـ تحت عنوان شروط

---

[130] ـ الدستور القرآني في شؤون الحياة 2/316، 317.

[131] ـ الأنفال 74، فسرت الفتنة في الأرض بقوة الكفر والفساد الكبير بضعف الإسلام. والأظهر أنها هنا بمعني اضطهاد المسلمين وصدهم عن الدين ومن لوازم هذا ضعف الإسلام. أنظر تفسير المنار 10/162.

[132] ـ أنظر تفسير المنار 10/111، 112. إنها سنة في كون ترك الولاية أعظم مثارات الفتن والفساد في الأمة والاختلال في الدولة. وشواهد هذه السنة في التاريخ الإسلامي وغيره كثير جدا. أنظر تفسير الظلال 4/73و 7/530.

[133] ـ أنظر مجالس للتذكير 677 وتفسير المنار 10/138.

[134] ـ الحج: 36.

النصر ـ "هذا من الله خبر حق ووعد صدق، بأنه يرد عنهم كيد أعدائهم ويبطل مكرهم ... وإن هذا منه لهم متكرر متجدد ... لأنهم بإيمانهم حافظوا على أمانة الله عندهم، وعهده لديهم، ولكن أعداءهم ضيعوا أمانة الله عندهم...

فإذا عدمت منهم الأمانة فخانوا الله والرسول، وخانوا أمانتهم، وفشت الفواحش والمناكر والبدع فيهم، وصاروا لا يتناهون عن منكر فعلوه؛ وإذا بطروا نعم الله عندهم، فعطلوا منها ما عطلوا، واستعملوا منها ما استعملوا في الشر والفساد واتباع الشهوات ـ إذا كانوا هكذا ـ فقد استوجبوا غضب الله وبغضه ونقمته، وحرموا نصرته ودفاعه وكانوا هم الظالمين"([135]) وإن أمهات المنكرات المفسدة للمجتمع الكذب والخيانة "وإن الإيفاء بالعهود والعقود من أهم الفرائض التي فرضها الله تعالى لنظام المعيشة والعمران. وإن الغدر والإخلاف من الذنوب الهادمة للنظام، المفسدة للعمران المفنية للأمم. وما فقدت أمة الوفاء، الذي هو ركن الأمانة وقوام الصدق؛ إلا وحل بها العقاب الإلهي! ولا يعجل الله الانتقام من الأمم بذنب من الواقع؛ حال أي أمة استهانت بالإيفاء بالعقود. فإن أنت نظرت نظرة الفاحص؛ رأيت كيف حل بها عقاب الله تعالى بالإذلال وضياع الثقة بينها ... فهم يعيشون عيشة الأفراد لا عيشة الأمم.. صور متحركة ووحوش مفترسة. ينتظر كل واحد وثبة الآخر عليه، إذا أمكن ليده أن تصل إليه؛ فلا تعاون ولا تناصر ولا تعاضد، بل استبدلوا بهذه المزايا التحاسد والتباغض! بأسهم بينهم شديد! ولكنهم أذلاء للعبيد!"([136])... وإنما

---

[135] ـ مجالس التذكير 587، 588، قال: "والخيانة خيانتان خيانة عقيدة وخيانة أعمال وإن المرء يخرج عن أصل الإسلام بما كان في أصل العقيدة أو بعمل يدل دلالة ظاهرة على فساد العقيدة".

[136] ـ تفسير المنار 2/121، يقول ولقد أحصيت قضايا التخاصم في محكمة "بنها" وحدها ـ مدينة في مصر ـ فألفيت خمسة وسبعين قضية من المائة في قضايا بين القارب مترتبة على الغدر والخيانة.

وهذا شكل من أشكال الإهلاك الاجتماعي بالسنن وليس من شأنه تعالى وسننه في عباده أن يهلك القرى بظلم منها وأهلها مصلحون في أعمالهم وأحكامهم.

تؤدَّى الأعمال ويقام بالواجب بحكم الأمانة. فإن خزيت الأمانة؛ سقط بناء السلطة! وسلب الأمن، وزاحت الراحة، وضاعت الحقوق، وتفتحت أبواب الفقر والفاقة والخراب والفساد!([137])

- ثالثا: عاقبة الظلم والظلمة:

يحدثنا الأستاذ عزة دَرْوَزَةُ - رحمه الله - عن حَمْلَةِ القرآن الكريم على الظلم والظالمين، ببيان: "ما أولته حكمة التنزيل من اهتمام عظيم لمعالجة ما انطوى في هذه الكلمة (الظلم) التي تتجسد فيها معاني عديدة ... كالجور الذي هو ضد العدل، والانحراف عن طريق الحق، والخيانة على النفس، والعدوان على حريات الناس وحقوقهم وأموالهم ودمائهم ... التحكم فيهم، والاستكبار عن دين الله وسبيله، والصد عنها ومناوأة رسل الله ودعاة الإصلاح والهدى والكيد لهم، واقتراف الآثام بخس الحق"([138]).

ولتأكيد أخذ ربك الظلمة بظلمهم - في إطار السنن - جاء الخبر في القرآن الكريم بهذه السنة، عقب ذكره لأنباء القرى الظالمة، إقامةً للحجة وشهادة على صدق وعد الله فيها، وذلك هو قوله تعالى:﴿ذلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم﴾ ([139]). ثم عقب القرآن نفسه على ذلك بذكر القوانين والسنن الإجرائية بقوله تعالى: ﴿وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه اليم شديد﴾ ([140]) فيكون قد انطوى في الآية ذكر سنة ربانية،وهي شمول البلاء إذا كانت حالة الظلم هي الغالبة وقد أمر الله المسلمين باتقاء الفتن التي إذا حدثت لا ينحصر أثرها في الظالمين فقط ([141]). ولا يكون هذا الأخذ بالإهلاك إلا بعد الإنذار بعاقبة الظلم، إذ ليس من شأنه تعالى وسنته في عباده أن يهلك القرى بظلم منه سبحانه، وأهلها مصلحون

---

137 ـ أنظر تفسير المنار 4/178 في تفسير آية النساء 57.

138 ـ الدستور القرآني في شؤون الحياة 2/369.

139 ـ هود 100، 101.

140 ـ هود102.

141 ـ أنظر الدستور القرآني 2/372. وتفسير الظلال 4/625.

في أعمالهم وأحكامهم، "وهذا هو الأساس العظم لعلم الاجتماع في حياة الأمم وموتها وعزها وذلها"([142]) وإن أخذ الله للقرى الظالمة عند استحقاقهم له في المستقبل هو كأخذه لها في الماضي أليم شديد([143]).

ومما لا حظه ابن باديس وهو يبين أسباب هلاك الأمم بالظلم من خلال قوله تعالى:)وإن من قرية إلا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة أو معذبوها عذابا شديدا كان ذلك في الكتاب مسطورا(([144]) "أن الأمم كالأفراد تمر عليها ثلاثة أطوار، طور الشباب وطور الكهولة وطور الهرم. والطور الخير في الأمم هو الذي ذكر في الآيات كثيرا([145]) ووجه ذلك؛ أن طور الهرم الطور الذي ينتشر فيه الفساد، ويعظم فيه الظلم، وينتهي فيه الأعذار للأمة، فيتنزل بها ما تستحقه من هلاك أو عذاب، فكرر ذكر هذا الطور لزيادة التحذير منه والتخويف من سوء عاقبته"([146]).

فالكلام في الأمم وعقوبتها، ولا يمكن أن يحل بها بلاء إلا بذنب فشا فيها فزحزحها عن صراط الله، إعمالا لقوله تعالى:)وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة(. ولقد فسر الإهلاك في الآية بالإبادة والإفناء بالاستئصال كما فعل بعاد وثمود؛ وبالعذاب الشديد، كالأمراض وفساد القلوب وانحطاط الأخلاق وافتراق

---

[142] ـ تفسير المنار 12/247.

[143] ـ أنظر نفس المصدر والصفحة.

[144] ـ الإسراء: 58.

[145] ـ قال في شرح الآية "والقرية البلد الجامع للناس ويستعمل في التنزيل بمعنى العاصمة في عرف هذا العصر أي المدينة الجامعة التي يقيم فيها زعماء الشعب وأولوا أمره وكذا بمعنى الشعب أو الأمة. وهو شكل من أشكال التفسير بعلم الاجتماع."

[146] ـ مجالس التذكير 194.

الكلمة وتسليط الظلام، كما أرسل على بني إسرائيل عبادا أولي بأس شديد([147]) وجوائح السماء([148]).

ومن التطبيق التفسيري للآيات القول بأن "القرى التي قضى عليها بالعذاب الشديد، فهي لا تزال بقيد الحياة فتداركها ممكن وعلاجها متيسر مثل الأمم الإسلامية الحاضرة، فمما لا شك فيه أن فينا ظلما وعتوا وفسادا وكفرا بنعم الله. إننا من جراء ذلك لفي عذاب شديد. وليست الأمم الإسلامية مخصوصة بهذا بل وأقوى منها في أسباب العذاب والهلاك غيرها من أمم الأرض. وإن قسطهم من العذاب لشديد"([149]).

- رابعا: عاقبة الترف والاستبداد:

جاء في تفسير قوله تعالى:)وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها وما يمكرون إلا بأنفسهم وما يشعرون(([150])؛ إن "من العبرة في الآية ـ بما يناسب العصر ـ أن سنة الله تعالى في الاجتماع البشري قد مضت بأن يكون في كل عاصمة لشعب أو أمة أو كل قرية وبلدة ... رؤساء وزعماء مجرمون، يمكرون فيها بالرسل وبسائر المصلحين من بعدهم ولا سيما في الأزمنة التي تكثر فيها المطامع، ويعظم حب الرئاسة والكبرياء؛ يمكرون بالناس من أفراد أمتهم وجماعاتها ليحفظوا رئاستهم ويعززوا كبريائهم([151]). فيصدق عليهم

---

[147] ـ مما يذكره تفسير المنار في بيان قوله تعالى: "وضربت عليهم المسكنة" في إطار سؤال مؤداه: هل ترتفع عنهم المسكنة فيكون لهم ملك وسلطان في يوم من الأيام؟ فأجاب الأمر يحتاج إلى بسط؛ فأما من الجهة الدينية فهم يقولون إنهم مبشرون بذلك. وأما من الجهة الاجتماعية فيبحث فيه عن تفرقهم في الأرض على قتلهم وعن انصرافهم عن فنون الحرب

[148] ـ أنظر مجالس التذكير 192 والتحرير والتنوير 15/141.

[149] ـ نفس المصدر 195. وإذ لم يأت المقدار المماثل من الهلاك أو العذاب بما عندهم من أسبابهما فلأنه لكل أمة اجل ولكل اجل كتاب، وتلك سنة أخرى من سنن الله في الاجتماع البشري.

[150] ـ الأنعام: 124.

[151] ـ وهذا يقرر أن المسؤولية الكبرى حتى في الإصلاح؛ تتحملها هذه الطبقة في المجتمع، وإن أولي الأمر في الدولة أول من يدخل في هذا النطاق، لأنهم بولايتهم الأمر وتمتعهم بأسباب السلطان والقوة أقدر على التوجيه والتلقين والقدوة والتنفيذ. أنظر الدستور القرآني 2/396.

قوله تعالى:)وكذلك نولي بعض الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون(([152]).

وهذا العموم في الآية المفسرة، صحيح واقع يعرفه أهل البصيرة والعلم بشؤون الاجتماع والعمران، ويتحقق هذا العموم بكون أكثر الأكابر الزعماء مجرمين ماكرين، ولاسيما في القرى التي استحقت الهلاك بحسب سنة الاجتماع"([153]). المبينة في قوله تعالى:)وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها([154]) ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا(([155]) التي تقرر بمعناها العام حقيقة اجتماعية هامة مؤداها: أن فساد مجتمع ما إنما يكون بفساد زعمائه وكبرائه والبارزين فيه، الذين لهم عادة سلطة التوجيه في المجتمع، ولذلك بفساد زعمائه وكبرائه والبارزين فيه، الذين لهم عادة سلطة التوجيه في المجتمع، لذلك تجد القرآن الكريم يقرر ما يعلنه الكافرون - ووجوههم تتقلب في النار - في حق سادتهم وكبرائهم قائلين:)ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا(([156]).

والمترفون هم "في كل أمة، طبقة الكبراء الذين يجدون المال ويجدون الخدم ويجدون الراحة فينعمون بالدعة وبالراحة وبالسيادة، حتى تترهل نفوسهم وتأسن وترتع في الفسق ... وتستهتر بالقيم والمقدسات والكرامات، وتلغ في الأعراض والمحرمات، وهم إذا لم يجدوا من يضرب على أيديهم عاثوا في الأرض فسادا ونشروا الفاحشة في الأمة وأشاعوها، ورخصوا القيم العليا التي لا تعيش الشعوب إلا بها ولها؛ ومن ثَمَّ تتحلل

---

[152] ـ الأنعام 130.

[153] ـ تفسير المنار 8/33، 34 ويعلق على حال العصر سياسيا بقوله "وقد عظم هذا المكر في هذا العصر فصار قطب الرحا في سياسة الدول...".

[154] ـ على القول بأن المعنى أمرنا مترفيها بما نرسل به الرسل من التوحيد وعبادة الله وحده، وما يلزمه حتما من الصلاح والإصلاح ففسقوا وظلموا وافسدوا فحق عليها القول الذي أوحاه الله إلى الرسل بمثل قوله تعالى: "فأوحى إليهم وبهم لنهلكن الظالمين..."وكذا على القول بأن المعنى كثرناهم. أنظر تفسير المنار 8/34.

[155] ـ الإسراء 16.

[156] ـ الأحزاب 67.

الأمة وتسترخي، وتفقد حيويتها وعناصر قوتها، وأسباب بقائها؛ فتهلك وتطوى صفحتها"([157]). ولذلك تجد القرآن يسأل في استغراب واستقباح في قوله تعالى:)ألم تَرَ إلى الذين بدلوا نعمة الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار...(([158]). إن النص القرآني يشير إلى أن كبراء القوم عمدوا عمدا إلى تضليل قومهم عن سبيل الله فأسلم القوم قيادهم إلى كبرائهم ونزلوا لهم عن حرياتهم وشخصياتهم وخضعوا لأهوائهم ونزواتهم ([159]) وبذلك يمكنون للمترفين مما يهوون من الفساد والإفساد، ويكونون لهم به عونا على الاستبداد فقد جاء في تفسير قوله تعالى:)قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض(([160]). فهذه الآية المصرحة بأن تحريم الأرض المقدسة على أتباع موسى كان بسبب فسقهم، وأن الحكمة في هذا العقاب هو كونه تبصرة وذكرى لأولي الألباب. "فإن الشعوب التي تنشأ في مهد الاستبداد وتساس بالظلم والاضطهاد؛ تفسد أخلاقها وتذل نفوسها ويذهب بأسها، وتضرب عليها الذلة والمسكنة، وتألف الخضوع، وتأنس بالمهانة والخنوع، وإن طال عليها أمد الظلم تصير هذه الأخلاق موروثة ومكتسبة، حتى تكون كالغرائز الفطرية والطبائع الخلقية ... وهذا شأن البشر في كل ما يتآلفون له من خير وشر وإيمان وكفر ... فقد أفسد ظلم الفراعنة واستبدادهم فطرة بني إسرائيل، وطبع عليها بطابع المهانة والذل"([161])، ومن ثَمَّ سماهم القرآن فاسقين مرتين في نفس السياق، كما وصف فعل المترفين أيضا بالفسق نفس الذليل عزة أو إباء يعود بها إلى مستوى إنسانيته. ذلك من أنباء الترف والاستبداد،

---

[157] ـ تفسير الظلال 5/312.

[158] ـ إبراهيم 30.

[159] ـ أنظر تفسير الظلال 5/165. لذلك كان أعظم الفتنة وسبب البلاء السلطان الجائر، فإنه جار السلطان فسدت القلوب والعقول والأخلاق والأعمال، وبذلك تنحط الأمة في دينها ودنياها، ويلحقها كل بلاء وهلاك. أنظر مجالس التذكير 564.

[160] ـ المائدة: 28.

[161] ـ تفسير المنار 6/337.

وما يفعله في نفوس العباد وأمر الاجتماع. وإن المجتمعات ما أصيبت بأعظم ما أصيبت به؛ "إلا بإهمالهم لأمر الاجتماع ونظامه إما باستبداد أئمتهم وقادتهم، وإما بانتثار جماعتهم؛ بضعف روح الدين فيهم، وجهلهم بما يفرضه عليهم"([162]). فاستبد بهم المستبد، وأمات فيهم روح العزة والكرامة فأسرع إليهم الهلاك، كما أسرع إلى الأمم التي كثر مترفوها ففسقوا فيها؛ فحق عليها القول الثابت في سنة الاجتماع والعمران!([163]) بما أثبته القرآن من نواميس للاجتماع وأرشد إليه أنظار المؤمنين بدعوتهم إلى التدبر في ملكوت السماوات، والسير في الأرض لمعرفة كيف بدأ الخلق، وكيف كانت عاقبة المكذبين، وصولا إلى إيمان يقيني ومنهج سنني مؤهل إلى استئناف السير.

يقول الأستاذ سيد قطب – رحمه الله - في التعليق التفسيري على قوله تعالى:)يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود، فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها(([164]) إن النص القرآني معد للعمل لا في وسط أولئك الذين عاصروا الحادثة فشاهدوه فحسب، ولكن كذلك للعمل في كل وسط بعد ذلك، وفي كل تاريخ؛ معد للعمل في النفس البشرية إطلاقا في الآماد الطويلة والبيئات المتنوعة.

وإن النص القرآني يغفل أسماء الأشخاص وأعيان الذوات؛ ليصور نماذج البشر وأنماط الطباع، ويغفل تفصيلات الحوادث وجزئيات الواقع؛ ليصور القيم الثابتة والسنن الباقية، التي لا تنتهي بانتهاء الحادث، ولا تنقطع بذهاب الأشخاص ولا تنقضي بانقضاء الملابسات، ومن ثم تبقى قاعدة ومثلا لكل جيل ولكل قبيل. ويحفل - القرآن أيضا - بربط المواقف والحوادث بقدر الله المسيطر على الأحداث والأشخاص"([165]).

---

162 ـ مجالس التذكير 559.

163 ـ أنظر تفسير المنار 5/8.

164 ـ الأحزاب: 9.

165 ـ تفسير الظلال 6/550.

ولهذه الأهمية التي للسنن الاجتماعية في القرآن الكريم في حياة المسلمين - على أي الأحوال كانت - يدعو تفسير المنار إلى جعل هذه السنن علما من العلوم لنستديم ما فيها من الهداية على أكمل وجه؛ وهو أمر يوجب "على الأمة في مجموعها أن يكون فيها قوم يبينون لها سنن الله في خلقه كما فعلوا في غير هذا العلم من العلوم والفنون التي أرشدنا إليها القرآن بالإجمال"([166]).

والله الموفق للخير والمعين عليه.

ـــــــــــــــانتهى.

---

166 ـ تفسير المار 4/139.

مُقَدِّمَةٌ لِمَكْتَبَةِ الدَّرْسِ الْقُرْآنِيِّ

أ. د. محمد علوي بنصر/كلية الآداب مكناس

إن حيـاة أي نص تنبثق من قدرته على الإسـهام في خلق الحيـاة واسـتمرارها. ولقد تفاعل النص القـرآني مع الحياة البشرية وعمل على نموها وإنمائها في أحسن حالة يمكن أن يتصورها الإنسان.

إن النص القرآني بإمكانيات فذة في مستوى صنع الحياة ودفعها إلى الأمام برفق وسلام ووفق مرتكزات أساسية تقوم على تحديد جملة من المفاهيم الضرورية لاستقامة الحياة البشرية:

- الخلافة والاستخلاف.
- العمارة والاستعمار.
- السخرية والتسخير.
- الإمكان والتمكين.
- الوراثة الصالحة.

هذه المفاهيم ذات ارتباط جوهري بالعقيدة, لان العقيدة تحدد مسارها وآفاقها وأبعادها العملية, ولأن بينها من التداخل ما يعز معه الفصل بينهما, أو استقلال مفهوم واحد بذاته عن الآخر.

لقد بنى القرآن أمة على أساس القيم والمبادئ الربانية التي تضمنها، وبلغها النبي الخاتم صلى الله عليه وسلم قولا وعملا.

هذه القيم والمبادئ لم تعرض مجردة في إطار نظري تصوري بل عرضت أحداثا وقصصا تاريخية لتكشف قوانين العمران وضوابط التدافع الحضاري ومصير الأمم وسنن الاجتماع البشري, وقدمت دعوة علمية لتثير الأذهان, للنظر في السماء والأرض وما فيهما من عجائب الخلق والقدرة.

وقدمت أيضا نصوصا تشريعية لتنظيم حياة الأسرة والمجتمع والبشرية جمعاء. غاية تلك القيم والمبادئ: تفعيل الضروريات والترغيب في الحاجيات, والنظر في التحسينيات.

إن مهمة الإنسان في الوجود مهمة عمرانية. والقرآن مرتبط بمهمة الإنسان في الوجود. قال الله تعالى مخاطبا ملائكته إني جاعل في الأرض خليفة وليتمكن الإنسان من ممارسة المهام التي تتطلبها خلافته في مفهومها الواسع احتاج إلى آليات محدودة المهام متنوعة المسالك وهو ما نبه عليه قوله تعالى:وعلم آدم الأسماء كلها قد تكون أسماء للأشياء التي يحتاجها, وقد تكون علوما وإشارات وقواعد وضوابط, ومن قبل ومن وبعد علمه اللغة التي وقع بها تبادل الخطاب، وجاء القرآن حاكيا لها, ومؤصلا في نفس الوقت لتلك المهمة العمرانية, لأن الإنسان من حيث هو، عاجز عن أن ينجز ما أنيط به من مهام وتكاليف بالمستوى الذي يحفظ القيم وينشر الخير ويعمم السلام لولا ذلك التعليم الرباني ولولا ذلك الاستعداد الفطري الذي جبل عليه.

وإذا كان الدرس القرآني هو الأساس المباشر للعمران والمهيمن عليه، فلأنه قدم له كل الوسائل والسبل والمناهج التي تمكن من إنتاج المعرفة الضرورية والأساسية لقيام ذلك العمران.

وإذا كان الشائع هو أن العمارة مفهوم مادي فيه الآجر والحجر والرمل والجير. فبناء الإنسان في عقيدته وسلوكه وتهذيب أخلاقه وإشباعه بكل القيم الإسلامية وليكون أهلا لما خوطب به هو كذلك عمارة, إن الشريعة عمارة للإنسان والأرض, فلا فرق بين هذا وذاك لأن إيجاد الإنسان المسلم السوي المستقيم يحتاج إلى بناء وأسس وتلك عمارة, وهي أصعب وأشق من الأخرى, لأن إطلاق مصطلح العمران البشري, يشمل كل ما تقام به العمارة من دين وعلوم ومعارف وصنائع ومواد... وإن تفاعل ذلك هو الذي أنتج حضارة وهو مما حققه الدرس القرآني الأول. وهو درس لم ينطلق من مواجهة النص مباشرة كما يدعو البعض اليوم إلى ذلك بل اعتمد على معرفة الأدوات التي يفرضها (منها: الأسباب والنسخ والقراءة والبيان...الخ) مع إتقان توظيفها وفهم دورها قبل الإقدام على التفسير.

إنه النص الذي يفرض عليه آلياته, ولن يستقيم لك فهم له, أو رأي محمود فيما استلهمته منه, إذا أنت حاولت أن تستبعدها أو تفرض عليه فهومك الخاصة.

إن التفسير هو نهاية المعرفة بالنص القرآني كما يظهر للمفسر, وإذا كان هذا النص قابلا لعدد من التأويلات والتفسيرات؛ فإن تقرير المعنى المناسب أو الأنسب أو الراجح هو نهاية معركة جدلية بين عدة معان قد يكون واحد منها أنسب لعصره دون آخر. إذ لا يعقل أن يقدم أحد على تفسير سورة أو آية دون أن يطلع على ما قيل فيها من قبل المفسرين السابقين عليه. ودون معرفة التوجيهات التي تحكمهم, والعلوم التي استلهموها,ودون أن يكون هو أيضا مؤهلا لذلك بما يحمل من زاد علمي ولغة سليمة واستعداد فطري وصفاء سريرة.

إن غنى المكتبة القرآنية هو معجزة تضاف لباقي معجزات القرآن التي لن تنتهي أو تتوقف, فمما لاشك فيه أن توالي التفاسير, عصرا بعد آخر تكشف المتغيرات الفكرية التي يعرفها كل عصر لتوظيف النص القرآني في شتى المجالات، والمكتبة التفسيرية هي وسيلتنا لمصاحبة هذه التغيرات التي عرفها الإقدام على هذا النص تفسيرا وتأويلا.

وإذا كان الله لم يفرط في كتابه العزيز من شيء فإن هذا يقضي أن نهتم بجميع المجالات المعرفية لنستوعب تلك الإشارات القرآنية التي لم يفصل فيها القول. أو كانت مدفونة في إجمال لم يحسم في بيانه؛ والتفاوت بين التفاسير قيمة ومنهجا عادة ما يكون ناتجا عن الاهتمام بموضوع, أو بمجال دون آخر, ومن هنا اختلفت التفاسير والمناهج المؤصلة لها, وإنه وإن كان تخصص المكتبة يغيب في الدرس القرآني نظرا لاتساعه وشمول النظرة الإلهية للكون والحياة فإن لمكتبة القرآنية حضورا لن يغيب وإفادة هي أعز ما يطلب, ولهذا فهي تحتل المرتبة الأولى بين المكتبات.

ويمكن تصنيف هذه المكتبة إلى نوعين:

- الأول: التفسير المعرفي

- الثاني: التفسير العمراني والحضاري

يقوم النوع الأول على توظيف العلوم التي أنشأها القرآن حوله -فيه أو منه- لبيان معنى النص دون أن يكون هناك تلاقح بين الدرس القرآني والعمران البشري إلا على نطاق ضيق.

فالمعارف التي استعان بها المفسرون هي معارف إسلامية ومن ثم كان الفهم محكوما بنوع من الانغلاق والضيق. وإذا عددنا التفاسير الأصلية الدائرة في هذا الميدان لن نخرج عن عدد محدود منها, يتصدرها دوما تفسير الطبري (التفسير بالمأثور) وتفسير الزمخشري (التفسير البياني) وتفسير الفخر الرازي (تفسير المتكلمين) وتفسير القرطبي (تفسير الفقهاء) وما عدا ذلك لا يعدو أن يكون نجما يدور حول فلك من هذه الأفلاك. أو بمعنى آخر لا يعدو أن يكون تلخيصا أو حاشية وتعليقا.

إن كل واحد من تلك التفاسير يمثل ثقافة عصره في آفاقها وتنوعها, في خصبها وعطائها في تساؤلاتها واهتماماتها, دون أن يكون لفقه الواقع حضور في تلك التفاسير, فكان كل مفسر يجتهد في أن يتمثل علوم القرآن ليبرز المعاني القرآنية دون التفات إلى القواعد والسنن التي تحكم المجتمع البشري, أو سلوك الإنسان الذي نزل القران من أجل إصلاحه, وقد كان لابن خلدون قصب السبق في مقدمته – شأنه شأن الشاطبي في موافقاته- لو وجدا من يستوعب توجههما في إنشاء درس جديد للقرآن – في إطار التاريخ والاجتماع (المقدمة) وإنشاء درس جديد للقرآن في إطار فقه الواقع والمقاصد (الموافقات) من شأن هذا الدرس أن يغير الأرضية العلمية لكل إنتاج يأتي بعد ذلك ويعيد قراءة ما مضى على نحو أفيد وأنفع بدلا من ذلك التنافس في الحواشي والتخليص والهوامش.

أما النوع الثاني: - وهو التفسير الحضاري - فهو يبدأ من حركة الإصلاح ومن الاتصال والتلاقح العلمي الذي وقع

بين الثقافة الإسلامية والثقافة الغربية فاطلع علماء الإسلام على علوم لم يعرفوها, وعلى مناهج في الدرس والتحليل لم يألفوها وحاولوا من خلال ذلك الاطلاع والتلاقح أن ينتجوا تفاسير تستجيب للتطلعات العلمية كما تستجيب للتوجهات الجديدة في معالجة الواقع البشري: الواقع المعيش.

لقد تعرفوا على علم الاجتماع والنفس والتاريخ والفلسفة والأدب ومقارنة الأديان ومناهج التحقيق كما اطلعوا على القوانين والدساتير وأفادوا من كل ذلك ما انعكس على إنتاجهم الفكري وعملهم الأدبي.

فهذا الشيخ طنطاوي سعى في تفسيره "الجواهر" إلى استنباط إشارات ودلالات من القرآن تدل على كل ما عرفه الغرب من علوم مادية...

وكانت دروس محمد عبده التي دونها رشيد رضا أول نموذج لتفسير رائد في بابه تكلم فيه عن السنن الاجتماعية وعن القواعد الحضارية، وتوسع في الإشارات والدلالات على ضوابط التدافع ومصير الأمم, فبين سنن الله في خلقه من خلال الواقع ومن خلال التاريخ, واستنتج من ذلك الدرس العديد من الحلول القرآنية لمشاكل التخلف الاجتماعي والعلمي, وتخلف سياسة التدبير. وترشيد الإنفاق في أموال الأمة... وحدود سلطة الحاكم ومسؤولية الرعية. وتوالت التفاسير بعد ذلك، اختلفت مناهجها واتحدت أهدافها وإن تعددت الرؤى وغايتها: كشف المفهوم القرآني لكل ما يقوم به العمران البشري, ودراسة موضوعاته دارسة تبين شرع الله فيه وسنة الله في خلقه, فلم يبق هناك موضوع أو إشارة إلا وأخذت حظها من الاهتمام والدرس, والعقول لم تتوقف ودرس القرآن لم ينته ولن ينتهي أبدا, والركب سائر وسيعود بحول الله لهذه الأمة التفافها حول القرآن وحرصها على تفعيله في الواقع المعيش.

" ولابد من أن أقرر هنا أن مهمة تفسير القرآن ليست مهمة سهلة كالشأن في تناول النصوص الأخرى: الشعرية والنثرية, وذلك أن القرآن رؤية إلهية شاملة

للكون والحياة, وهو –كما صدق على الماضي- يصدق على الحاضر والمستقبل.. بعكس أي نص آخر.. فهو لا يعبر إلا عن وجهة نظر صاحبة محصورة في الزمان والمكان.

ويأتي إطلاق النص القرآني على هذا ليفرض حكمه على كل زمان ومكان في مجتمع المؤمنين. ومن هنا كان لزاما على هؤلاء المؤمنين أن يقرأوا القرآن..لا على أنه نص نزل منذ أربعة عشر قرنا.. بل على أنه نص نزل وما زال يتنزل على حياة الناس.. يرسم لهم المستقبل كما يخبرهم بالماضي.

وكان لزاما على مفسر القرآن أن يتناوله –آية آية- تناولا يخدم مجتمع المخاطبين قبل أن يعبر عن حياة الماضين, فتتجلى قدرة القرآن في بناء عالم الشهادة, كما تتجلى قدرته على الحديث عن عالم الغيب.

وأي حديث عن القرآن عن حياة الناس.. هو إبطال لنص القرآني, وعزل له عن الحياة التي جاء يـبنيها, ويقيم قواعد العدل فيها.

يجب أن يعمد المفسر إلى إنزال النص القرآني على الواقع ليشعر الناس بارتباطهم في حياتهم بالقرآن, وليزدادوا إيمانا مع إيمانهم, وليعايشوا ما يسمعون من الأوامر والنواهي, فتتعدل سلوكيا تهم, وتتغير تصرفاتهم, وتتحن معاملاتهم.." [167].

ورغم ما يمكن أن يقال من أن العلماء أحاطوا خبرا بهذا النص الكريم, فإنها خبرة لها نهاية و العصر الذي أنجزت فيه. لا يقال إن تلك التفاسير تجووزت ولكنها لبنة في بناء لم ينته بعد، وكل عصر يضيف من خلال مستجداته العلمية بقدر ما فتح الله له وبقدر ما علمه ﴿واتقوا الله ويعلمكم الله والله بكل شيء عليم﴾ [البقرة: 282].

إن المكتبة التفسيرية تؤكد أن العلماء أفرغوا جهدهم واجتهدوا ما استطاعوا ليحيطوا علما بما في القرآن الكريم, والواقع يشهد انه أكبر من أن يحاط به,

---

167 -" تأملات في فاتحة الكتاب" عبد الصبور شاهين.

وأوسع من أن يدرك ما فيه, وأبعد من أن يفرغ منه, أو تحتويه العقول والإفهام, إنه الكتاب الذي (لا يشبع منه العلماء ولا يخلق على كثرة الرد ولا تنقضي عجائبه)[168] ولاتسأم أو تكل العقول من النظر فيه, أو استلهامه عندما يجد الجديد من القضايا والمشاكل, أو تنحرف الأفعال وتزل العقول.

ــــــــــــــانتهى.

[168] - سنن الترمذي: أبواب فضائل القرآن.